موريس كورنفورث

مدخل الى المادية الجدلية

تعريب : محمد مستجير مصطفى

موريس كورنفورث

مدخل الى
المادية والمنهج الجدلي

دار الفارابي - بيروت

جميع الحقوق محفوظة
ايـــار ١٩٧٥

لذكرى دافيد جوست

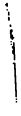

ملحوظة للمؤلف

عن الطبعة الرابعة

كان هذا الكتيب عن « المادية والمنهج الجدلي » في الاصل محاضرات القيتها في عام ١٩٥٠ تحت اشراف لجنة منطقة لندن التابعة للحزب الشيوعي البريطاني . ولقد مر وقت طويل منذ ذلك الحين قيل خلاله الكثير في هذا الموضوع ... ولكم يسعدني ان الكتيب ظل رغم ذلك مفيدا وان اضطررت ، كي يظل كذلك ، ان اقوم بمراجعته وتنقيحه ثلاث مرات

وقد حرصت في هذه المراجعات ، أن يكون ما اغيره ، في أقل حيز ممكن . وعند اعداد هذه الطبعة الرابعة كان أغلب ما قمت به ، هو بعض التغييرات الثانوية في الاسلوب لكي اجعل المعنى أكثر وضوحا ولاتجنب سوء الفهم . وبشكل خاص تركت الاشارات الى كتيبج . ستالين « المادية الجدلية والمادية التاريخية » ومحاضرة ماوتسي تونغ « عن التناقض » كما هي لانها تبدو لي جديرة بالاقتباس مهما كان الاعتراض على أقوال أو أفعال اخرى لواضعيها . وكان التغيير الاساسي الوحيد الذي ادخلته متعلقا بعلم الحياة ونظريات تروفيم ليزينكو الخلافية في الفصل السابع حيث كان ما كتبته في الاصل واضح الخطأ

وأود أن اؤكد أن هذا الكتيب لا يزعم أنه اكثر من « مدخل » فهو ليس شرحا للفلسفة الماركسية وما يزال على الماركسيين أن يصوغوها وينتقدوها ويطوروها

موريس كونفورث

لندن / يناير ١٩٦٨

القسم الأول

المادية

فلسفة حزبية

المادية والمثالية

المادية الميكانيكية

من المادية المكانيكية

الى المادية الجدلية

الفصل الأول

فلسفة حزبية

فلسفة حزب وفلسفة طبقة

يحتاج حزب الطبقة العاملة الثوري الى فلسفة ثورية للطبقة العاملة ، وهذه الفلسفة هي المادية الجدلية

وقد يبدو هذا القول غريبا لكثير من الساسة وكثير من الفلاسفة على السواء ، لكننا لن نستطيع ان نفهم المادية الجدلية الا اذا ادركنا الفكرة الكامنة خلفه

ولنسأل اولا ما هو مفهوم الفلسفة الكامن خلف تأكيدنا ان الحزب السياسي او الطبقة ، لأن الحزب دائما هو الممثل السياسي لطبقة ما يحتاج الى ان يضع ويتبنى فلسفة محددة خاصة به

نقصد عادة بالفلسفة تفسيرنا الاكثر عموميه لطبيعة العالم ولمكان البشرية ومصيرها فيه ، اي نظرتنا العامة للعالم

اذا فهمنا ذلك ، فمن الواضح ان لكل انسان فلسفة ما حتى ولو لم يعرف ابدا كيف يناقشها ، فكل انسان يتأثر بالافكار الفلسفية حتى لو لم يضعها هو لنفسه، ولو لم يكن في مقدوره صياغتها

فبعض الناس مثلا يعتقدون ان هـذا العالم ليس سـوى « واد للدموع » ، وأن حياتنا فيه ليست سوى تحضيـر لحياة أفضل في عالم اخر افضل ، ومن هنا فانهم يؤمنون بأن علينـا ان نتحمل كـل ما نتعرض له بجلد، دون ان نكافح ضـده ، وان نفعل كل ما يمكننا من خير لاخوتنـا من البشر ، وهـذا نوع من الفلسفـة او النظرة العامة للعالم

وثمة من يعتبر العالم مكانا لتحقيق الثراء،ويرى ان على كل امرىء ان يهتم بنفسه ، وهذا نـوع اخـر من الفلسفة

واذااعتبرنا ان فلسفتنا هي نظرتنـا العامـة الى العالم ، فستبرز امامنا مهمة بنـاء هذه النظرة العامة بشكل منظـم وبالتفصيل ، وتحويلها الى نظرية متماسكة حسنة الصياغـة، محولين المعتقدات والمواقف الشائعـة الغامضة الى مذاهب منظمة بدرجة او بأخـرى، وهذا ما يقـوم به الفلاسفة

وحين وضع الفلاسفة نظرياتهـم فكثيرا ما انتجوا شـيئا شديد التعقيـد ، شيئا مجردا جـدا وصعب الفهم ، ولكـن على الرغم من ان عددا محدودا نسبيا هـو الذي يقرأ ويهضم الانتاج الفعلي للفلاسفة ، فقـد يكـون لهذا الانتاج ـــ ولـه بالفعل ـــ تأثير واسع جدا ، لان تنظيم الفلاسفة لمعتقـدات معينة يدعم هذه المعتقدات ، ويساعد في فرضها على جماهير واسعـة من الناس العاديين ، ومـن هنـا يتأثر كل امرىء بالفلاسفة بطريقة او بأخـرى ، حتى ولو لم يقـرأ مؤلفـات هؤلاء الفلاسفة

واذا كان الامر كذلك ، فاننا لا نستطيع ان ننظر الى مذاهب الفلاسفة باعتبارها كليـة من نتاج العمل الذهني للفلاسـفة الافراد صحيح بالطبع ان صياغة الافكار والطريقة الخاصة التي توضع بها وتكتب هي من عمل فيلسوف معين ، لكـن للافكـار ذاتهـا في جوانبها الاكثـر عموميـة ، اساسها

الاجتماعي في افكار تعكس النشاط الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية في زمن معين،وهي بالتالي لا تثب جاهزة من رؤوس الفلاسفة

ومن هنا يمكننا ان نتقدم خطوة ابعد

فحين يكون المجتمع منقسما الىطبقات — وقد انقسم المجتمع الى طبقات دائما منذ انحلال المشاعية البدائية اي طيلة الفترة التاريخية التي ينتمي اليها تاريخ الفلسفة — فان مختلف الافكار الجارية في مجتمع تعكس دائما نظرات مختلف الطبقات ومن هنا نستطيع ان نستنتج ان مختلف مذاهب الفلاسفة تعبر دائما ايضا عن نظرة طبقية ، فهي ليست في الواقع الا البناء المنسق والصياغة النظرية لنظرة طبقة ما ، او — بتعبير افضل — لايديولوجية طبقة معينة.

فالفلسفة هي فلسفة طبقة ، وهكذا كانت دائما ، وقد يدعي الفلاسفة انها ليست كذلك، غير ان هذا لا يغير الواقع

ذلك ان الناس لا يفكرون ، ولا يستطيعون ان يفكروا ، في عزلة عن المجتمع ، وبالتالي في عزلة عن المصالح الطبقية والمعارك الطبقية التي تسود المجتمع ، تماما كما لا يستطيعون ان يعيشوا ويتصرفوا في مثل هذه العزلة ، والفلسفة هي نظرة عامة للعالم هي محاولة لفهم العالم والبشرية ومكان الانسان في العالم ولا يمكن ان تكون مثل هذه النظرة العامة الا نظرة طبقية ، ويؤدي الفيلسوف وظيفة الممثل الفكري لطبقة وكيف يمكن ان يكون الامر على خلاف ذلك ؟ فنحن لا نستورد الفلسفات من كوكب اخر ، بل هي تنتج هنا في هذه الارض ،وينتجها اناس ينغمسون — ارادوا ذلك او لم يريدوه — في علاقات طبقية قائمة ، وفي الصراع الطبقي القائم ،ومن هنا ، فمهما

قال الفلاسفة عن انفسهم ، فليس ثمة فلسفة لا تجسد نظرة طبقية ، فليست هناك فلسفة غير متحيزة وفلسفة متحيزة بالنسبة للصراع الطبقي ، ومهما اجهدنا انفسنا في البحث فلن نجد فلسفة غير متحيزة ولا متحزبة ولا طبقية

واذا وضعنا هذا في ذهننا فسنجد ان فلسفات الماضي جميعا ، قد عبرت بطريقة او باخرى عن نظرة الطبقات المسماة بالطبقات « المتعلمة » اي الطبقات المستغلة فقادة المجتمع هم عادة الذين يعبرون عن افكارهم وينشرونها في شكل فلسفات منظمة ، وكان هؤلاءالقادة دائما ،حتى ظهور الطبقة العاملة الحديثة ــ النتاج الخاص للرأسمالية ــ من الطبقات المستغلة ، فسادت نظرتهم في الفلسفة كما سادوا هم في المجتمع

ولا نستطيع ان نخرج من ذلك الا بأنه على الطبقة العاملة ، اذا ارادت اليوم ان تشغل مكان القيادة في المجتمع ان تعبر عن نظرتها الطبقية العامة في شكل فلسفة ، وان تعارض بفلسفتها الفلسفات التي تعبر عن مصالح المستغلين وتدافع عنهم

قال لينين في رثائه لانجلز « يمكننا ان نعبر في بضع كلمات عن الخدمات التي اداها ماركس وانجلز للطبقة العاملة على الوجه التالي لقد علما الطبقة العاملة ان تعرف نفسها ، وان تعي ذاتها ،واحلا العلم محل الاحلام» وقد وضع ماركس وانجلز النظرية الثورية لنضال الطبقة العاملة ، النظرية التي تضيء الطريق الذي يمكن الطبقة العاملة من الاطاحة بالاستغلال الرأسمالي ، وان تتولى قيادة كل جماهير الشعب،وبذلكتحرر المجتمعبأسره مرة واحدةوالىالابد من كل قهر ومن كل استغلال للانسان بواسطة الانسان

وعلمنا ماركس وانجلز ان الطبقة العاملة دون حزبها ـ المستقل عن كل الاحزاب البورجوازية ـ لا تستطيع بالتأكيد ان تنتصر على الرأسمالية ، لا تستطيع ان تقود المجتمع كله نحو الغاء الرأسمالية واقامة الاشتراكية وطور لينين التعاليم الماركسية عن الحزب ، واوضح ان على الحزب ان يعمل كطليعة لطبقته ، كأكثر اقسام طبقته وعيا وانه هو سلاح كسب السلطة السياسية وتدعيمها

ولكي يستطيع الحزب ان ينجز هذا الدور فمن الواضح ان عليه امتلاك المعرفة والفهم والبصيرة ، وبعبارة اخرى يجب أن يكون مسلحا بنظرية ثورية يقيم عليها سياسته ويسترشد بها في نشاطه

وهذه النظرية هي النظرية الماركسية ، وهي ليست مجرد نظرية اقتصادية ، ولا هي مجرد نظرية سياسية ، بل هي نظرة شاملة للعالم ـ فلسفة فليست الافكار الاقتصادية والسياسية ـ ولا يمكن ان تكون ـ مستقلة عن النظرة العامة للعالم ، فالافكار الاقتصادية والسياسية المحددة تعبر عن نظرة معتنقيها الى العالم ، وبالعكس تجد الافكار الفلسفية تعبيرا عنها في الافكار الاقتصادية والسياسية

وحين يدرك حزب الطبقة العاملة ذلك كله فانه لا يستطيع الا ان يصوغ فلسفته الحزبية؛ والا ان يتمسك بها بعد صياغتها ويطورها ويكتنزها وفي هذه الفلسفة ـ المادية الجدلية ـ تجسد الافكار العامة التي عن طريقها يفهم الحزب العالم الذي يسعى الى تغييره ، ووفقا لتعبيراتها يصوغ اهدافه ، ويحدد طريق نضاله لتحقيقها في هذه الفلسفة تجسد الافكار العامة التي يسعى الحزب عن طريقها ، الى تنوير الطبقة كلها وتنظيمها، والى التأثير على كل جماهير الشعب العامل وقيادتها وكسبها ، موضحا

النتائج التي يجب ان تستخلص من كل مرحلة من مراحل النضال ، ومساعدا الشعب على ان يعرف من خبرته الذاتية كيف يسير قدما نحو الاشتراكية

وهكذا نرى لماذا انبعثت في عصرنا فلسفة تعبر عن نظرة الطبقة العاملة الثورية للعالم

وقد علمت الخبرة ذاتها الحزب احتياجه للفلسفة اذ توضح الخبرة انه اذا لم يكن لدينا فلسفتنا الاشتراكية الثورية فسنقترض افكارنا حتما من مصادر الاعداء ، من مصادر معادية للاشتراكية ، واذا لم نتبن اليوم نظرة الطبقة العاملة الى العالم والنضال من اجل الاشتراكية ، فسنتبنى — او سننزلق دون قصد — الى نظرة الرأسماليين والنضال ضد الاشتراكية وهذا هو السبب الذي يوجب على حزب الطبقة العاملة — اذا اراد ان يكون قيادة ثورية حقة لطبقته والا يضللها باستيراد افكار رأسمالية معادية ، وبسياسة تتوافق مع هذه الافكار — ان يهتم بصياغة فلسفته الثورية ، وبالدفاع عنها ونشرها

الفلسفة الطبقية والحقيقة

ان ما قلناه عن الفلسفة الحزبية والطبقية قمين بأن يثير الاعتراض بأن مثل هذا المفهوم هو مسخ كامل لكل فكرة الفلسفة

سيقول البعض ان المصالح الطبقية قد تجعلنا نميل الى الايمان بشيء اكثر من شيء اخر ، افلا يجب ان تكون الفلسفة فوق ذلك ؟ الا يجب ان تكون الفلسفة موضوعية وغير متحيزة ، وان تعلمنا ان ننحي جانبا مصالح الحزب والطبقة ، وان نبحث عن الحقيقة وحدها ؟ذلك ان ما هو

حقيقي فهو بالتأكيد حقيقي ، وافق هذا مصالح طبقة او اخرى او لم يوافقها فاذا كانت الفلسفة متحزبة — فلسفة حزبية — فكيف يمكن أن تكون موضوعية كيف يمكن ان تكون فلسفة صادقة ؟

وللاجابة على مثل هذه الاعتراضات نقول ان وجهة نظرة الطبقة العاملة في الفلسفة ابعد ما تكون عن عدم الاهتمام بالحقيقة

اليست هناك حقيقة ؟ هناك حقيقة بالطبع — حقيقة يزداد الناس اقترابا منها فالنظرات المختلفة ، وان كانت متحزبة، ليست على مستوى واحد فيما يتعلق بقربها من الحقيقة فكل فلسفة تجسد نظرة طبقية ، هذا صحيح، ولكن تماما كما تختلف طبقة عن الاخرى في دورها الاجتماعي وفي دورها في تطور المجتمع ، فكذلك تجسد فلسفة ما انجازات ايجابية بالمقارنة بفلسفة اخرى فيما يتعلق بالتوصل الى الحقيقة عن العالم وعن المجتمع

ويميل الناس الى الاعتقاد بأن تبنينا لوجهة نظر متحزبة طبقية ، يعني اننا ندير ظهورنا للحقيقة ، وانا من الناحية الاخرى اذا كنا نبحث صادقين عن الحقيقة فان علينا ان نكون غير متحيزين ولا متحزبين كلية لكن العكس هو الصحيح، فلن نستطيع الاقتراب من الحقيقة الا اذا تبنينا وجهة النظر المتحزبة لاكثر الطبقات تقدما من الناحية التاريخية

ومن هنا فان تعريف المادية الجدلية بأنها فلسفة حزب الطبقة العاملة الثوري ليس امرا لا يمكن التوفيق بينه وبين دعوى المادية الجدلية للتعبير عن الحقيقة وانها وسيلة الوصول الى الحقيقة ، بالعكس ان لنا كل الحق في

هذا الادعاء بالنظـــر الى الوضع التاريخي للطبقة العاملـــة ولدورهـــا

ففيما عدا الطبقة العاملة كانـــت كل الطبقات الاخـــرى المتطلعة الى قيادة المجتمع طبقات مستغلة ، لكـــن على كـــل طبقة استغلالية ـــ مهمـــا كانت انجازاتها ـــ ان تجد دائمـــا طريقة لاخفاء مركزها واهدافها الحقيقيـــة ، سواء عن نفسها او عن المستغلين ، ولاظهار حكمها كحكـــم عادل دائـــم ،لان مثل هذه الطبقة لا يمكن ان تعترف بمركزها واهدافها الحقيقية كطبقة مستغلة، ولا بالطابع المؤقـــت لنظامها.

فمثلا في العصر العبودي القديم قال ارسطـــو اعظـــم الفلاسفة الاقدمين ان الطبيعـــــة تفرض النظام العبودي لان بعض الناس عبيد بطبيعتهم

وفي اوج المجتمع الاقطاعي قـــــدم توما الاكويني اعظـــم فلاسفة العصور الوســـطى صـــورة الوجـــود كله كنوع من انواع النظام الاقطاعي ، فكـــــل شيء مرتـــب وفقا للسلم الاجتماعي الاقطاعي ، وعلي قمتـــه الله يحيط بـــه رؤساء الملائكة ، وكـــل شيء يعتمـــد علـــى الدرجـــة التي تعلـــوه في النظام ولا يمكن ان يوجـــد شيء بدون الله.

اما بالنسبة للرأسمالية ، فقد حلت كل الروابط الاقطاعيـــة وكما قال ماركس وانجلز « لم تترك علاقة باقية بين الانسان والانسان سوى المصلحة الذاتيـــة العارية ، سوى علاقة الدفع الفوري الجافة »(١)، وقد انعكس هذا في بداية الفلسفة الرأسماليـــة ، خاصة في انكلترا

فهذه الفلسفـــة ترى العالم مكونا من ذرات مستقلة ، كل منها كاملة بذاتها ، ولا تهتم الا بنفســها ، وكلها تبادل التأثيـــر

---

(١) ماركس وانجلز : بيان الحزب الشيوعي .

فيما بينهـــا ، وكان هذا مرآة للمجتمع الرأسمالي كما تـــراه البورجوازية الصاعدة، وعن طريق مثل هذه الافكار نجحـــت ايضا في اخفاء اهدافها في السيطرة والربح ، فالعامـــل والرأسمالي « على مستوى واحـــد » ، كـــل منهمـــا ذرة انسانية حـــرة، ويدخـــلان في تعاقد حر ، يعمل احدهمـــا، ويقدم الاخـــر راس المال والاجـــر

لكن الطبقة العاملة ليست في حاجة الى مثل هذا الوعي الزائف » الذي تحويه مثل هذه الفلسفات ، انها لا تريـــد ان تقيـــم نظاما جديدا للاستغـــلال وانما الغـــاء استغلال الانسان للانسان كلية ، ولهذا السبب فليس لها مصلحة ايـــا كانت في اخفاء شيء ، بـــل مصلحتهـــا بالاحرى في فهـــم الاشياء كما هي عليه ، فكلما زاد فهمهـــا للحقيقـــة ، زادت قوتها في النضال

وبالاضافة الى هـــذا ارادت الطبقات الاخـــرى لنفسها الدوام، وان تبقى الى اقصى فترة ممكنـــة، ومن هنا كـــانت في صـــف « المذاهـــب » الفلســـفية التي تعطيهـــا مكانـــا دائما في الوجود وتحاول مثل هـــذه المذاهب ان تحـــدد طبيعة الوجـــود ، بحيـــث تعرض اشياء معينة وعلاقـــات معينة كأشياء ضرورية وابدية ولا تقبل التغيير، وتصور نظاما اجتماعيا معينا كجـــزء ضروري من كل

لكن الطبقـــة العاملة لا تريد لنفسها الدوام ، بالعكس انها تريد انهاء وجودها كطبقـــة بأسرع ما يمكـــن ، وان تبنـــى مجتمعا لا طبقيا، ولهذا فليست الطبقة العاملة في حاجة على الاطلاق لاي « مذهب » يقيم دواما زائفا ، غمركزها واهدافها الطبقيـــة تخولها وتجعلهـــا في حاجـــة الى ادراك وتتبـــع التغير ، ميلاد وفناء كل شيء في الوجود

وهكذا ، فان لفلسفتنا الحزبية الحق في ادعاء الحقيقة ،

لانها هي الفلسفة الوحيدة القائمة على وجهة نظر تطالبنا بضرورة البحث الدائم لفهم الاشياء كما هي عليه ، بكل تغيراتها وعلاقاتها المتداخلة المتعددة الجوانب ، دون قناع او خيال

ثورة في الفلسفة

قال لينين المبدأ الماركسي مبدأ قادر لانه مبدأ حقيقي ، انه مبدأ كامل متجانس يزود الناس بتصور متكامل للعالم لا يقبل اي شكل من اشكال الخرافة او الرجعية او الدفاع عن القهر البورجوازي» (٢).

ثم قال بعد ذلك

يوجد في الماركسية ما يشبه « الحلقية » بمعنى كونها مذهبا جامدا ضيق الافق مذهبا نشأ بعيدا عن طريق تطور المدنية العالمية بالعكس ان عبقرية ماركس لتكمن بالتحديد في انه استطاع ان يقدم اجوبة لاسئلة شغلت بالفعل اعظم الاذهان التي انجبتها الانسانية ، فقد نشأت تعاليمه كاستمرار مباشر وفوري لتعاليم اعظم ممثلي الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية » (٣).

وتبدو الماركسية — في جانبها الفلسفي — تتويجا لتطوير كبير للفكر الفلسفي،طرحت فيه المشكلات الفلسفية وتشكلت في مجرى سلسلة من الثورات ، وصلت ذروتها في الفلسفة الكلاسيكية الالمانية في بداية القرن التاسع عشر

ولكن اذا كانت الماركسية استمرارا وتتويجا لمنجزات الفلسفة في الماضي،فانها استمرار يضع حدا لعصر ، ويشكل

---

(٢) المصادر الثلاثة والاجزاء المكونة الثلاثة للماركسية . لينين

(٣) نفس المصدر

نقطة انطلاق جديدة ؛ فهي تندفع وفق خطوط جديدة بالمقارنة بفلسفات الماضي ، انها ثورة في الفلسفة ، نهاية « لمذاهب » الماضي ، فلسفة من نوع جديد كلية

فلم تعد الماركسية اللينينية فلسفة تعبر عن نظرة طبقة مستغلة الى العالم عن نظرة اقلية تسعى الى فرض حكمها وافكارها على جماهير الشعب لكي تبقيهم خاضعين وانما هي فلسفة تخدم الناس البسطاء في نضالهم للتطويح بكل استغلال ولبناء مجتمع لا طبقي

ان الماركسية فلسفة تسعى لفهم العالم من اجل تغييره . يقول ماركس « كان كل ما قام به الفلاسفة هو تفسير العالم بطرق مختلفة ، بيد ان القضية هي تغييره » (٤) وهكذا فاذا كان في وسعنا ان نقول عن فلسفات الماضي انها كانت محاولة لفهم العالم ومكان الانسان منه ومصيره فيه — محاولة تحدها بالضرورة النظرة الطبقية وتحيزات واوهام مختلف فلاسفة الطبقة المستغلة — فان علينا ان نقول عن الفلسفة الماركسية انها محاولة لفهم العالم من اجل تغييره ومن اجل تشكيل وتحقيق مصير الانسان فيه ان المادية الجدلية هي سلاح نظري في ايدي الشعب لاستخدامه في تغيير العالم

ومن هنا لا تسعى الماركسية الى اقامة افكارنا عن الاشياء على اساس اخر غير الدراسة الواقعية لها ، تلك الدراسة المنبعثة من الخبرة والممارسة والتي تمحصها هذه الخبرة والممارسة انها لا تبتدع « مذهبا » — كما فعلت الفلسفات السابقة — ثم تحاول ان تجعل كل شيء متلائما معه

---

(٤) ماركس : قضايا عن فيورباخ — رقم ١١ .

وهكذا فالمادية الجدلية فلسفة شعبية ، وفلسفة علمية، وفلسفة ممارسة ، بأصدق ما تنطوي عليه هذه الصفات

وتتجسد السمات الثورية ـ للمادية الجدلية في قسمين للفلسفة الماركسية هما اللذين يعطيانها اسمها وهما ـ المادية والجدل ـ .

فكيما نفهم الاشياء حتى نغيرها يجب الا ندرسها وفقا لمعطيات اي مذهب مجرد في تغيراتها وعلاقاتها المتبادلة الواقعية وهذا ما يعنيه الجدل

ويجب ان ننحي جانبا الافكار والخيالات المسبقة عن الاشياء ،وان نسعى لوضع نظرياتنا في توافق مع الظروف الحقيقية للوجود المادي وهذا يعني ان نظرتنا ونظريتنا ماديتان

قال انجلز انه في المادية الجدلية اخذت النظرة المادية للعالم مأخذا جديا حتما للمرة الاولى ، وطبقت بشكل متماسك » لانها « عزمت على فهم العالم الحقيقي ـ الطبيعة والتاريخ ـ تماما كما يظهر لكل من يقترب منه متحررا من الخيالات المثالية المسبقة لقد تقرر بلا هوادة التضحية بكل خيال مثالي لا يمكن ان ينسجم مع الوقائع كما تبدو في علاقاتها الحقيقية وليس في علاقاتها المتخيلة ولا تعني المادية شيئا اكثر من ذلك » (٥) ـ ـ

---

(٥) انجلز : لودفيج فيورباخ ـ الفصل الرابع .

الفصل الثاني

المادية والمثالية

المادية والمثالية
طريقان متعارضان لتفسير كل المسائل

ليست المادية مذهبا جامدا بل هي طريق لتفسير وتطور وشرح كل مسألة .

وتتعارض الطريقة المادية لتفسير الاحداث ولتصور الاشياء وعلاقاتها المتبادلة مع الطريقة المثالية لتفسيرها وتصورها ؛ فالمادية تعارض المثالية ، وفي كل مسألة توجد طريقة مادية وطريقة مثالية لتفسيرها طريقة مادية وطريقة مثالية لمحاولة فهمها

وهكذا ليست المادية والمثالية نظريتان مجردتان متعارضتان حول طبيعة العالم؛ لا تهمان الناس العاديين العمليين الا قليلا، بل هما طريقان متعارضان لتفسير وفهم كل مسألة ، وهما بالتالي يعبران في الممارسة عن معالجتين متعارضتين ، ويؤديان الى نتائج مختلفة في النشاط العملي.

فهما ليسا — كما يستخدم البعض التعبير — موقفان اخلاقيان متعارضان — يمثل احدهما سمو الفكر ويمثل الاخر الانحطاط والبحث عن المنفعة الشخصية ، فاذا

استخدمنا التعبير بهذا المعنى فلن نصل الى فهم التعارض بين المفهوم المثالي والمفهوم المادي فليست هذه الطريقة في التعبير كما يقول انجلز الا « تنازلا لا يغتفر امام التحيز السوقي التقليدي ضد كلمة المادية الناشيء عن التشهير الذي استمر طويلا من جانب الكهنة ، فالسوقي يفهم من كلمة المادية الجشع والادمان وشهوة العين وشهوة اللحم، والكبر والطمع والبخل ، والسعي وراء الربح والغش في البورصة — وباختصار كل الرذائل القذرة التي ينغمس هو فيها سرا ويفهم من كلمة المثالية الايمان بالفضيلة وبحب الخير للجميع وبشكل عام « بعالم افضل » ، يتفاخر به امام الاخرين » (١)

وقبل ان نحاول تعريف المادية والمثالية في عبارات عامة، لندرس اولا كيف تظهر هاتان الطريقتان لفهم الاشياء بالنسبة لبعض المسائل البسيطة المألوفة اذ سيساعدنا ذلك على ادراك مغزى التمييز بين تفسير مادي وتفسير مثالي.

فلندرس اولا ظاهرة طبيعية مألوفة جدا — الرعد ، ما الذي يسبب الرعد ؟

ثمة طريقة مثالية للاجابة على السؤال وهي ان الرعد يرجع الى غضب الله ، فعندما يغضب الله ينزل الرعد والبرق على البشرية

وتعارض الطريقة المادية لفهم الرعد هذه الطريقة، فسيحاول المادي شرح وفهم الرعد باعتباره راجعا فحسب الى ما يسميه القوى الطبيعية ، فمثلا قال الماديون القدامى ان الرعد لايرجع الى غضب الالهة وانما تسببه جسيمات

---

(١) انجلز : لودفيج فيورباخ ، الفصل الثاني .

مادية في السحب تصطدم ببعضها البعض ، وليست القضية هي ان هذا التفسير بذاته خاطيء،فالقضية هي انه كان محاولة مادية معارضة للتفسير المثالي ونحن نعرف اليوم الكثير عن الرعد بفضل البحث العلمي للقوى الطبيعية التي تسببه ، ولا تزال معرفتنا غير كاملة كثيرا ، لكنها تكفي على اي حال لتوضح ان التفسير يجب ان يتبع خطوطا مادية ، بحيث طرح تماما التفسير المثالي

نحن نرى انه بينما يحاول التفسير المثالي ان يرجع بالظاهرة الى سبب روحي — هو غضب الله في مثلنا هذا — فأن التفسير المادي يرجعها الى اسباب مادية

وفي مثلنا هذا سيوافق الكثير من المثقفين اليوم على قبول التفسير المادي ، وذلك لانهم يقبلون عموما الشرح العلمي للظواهر الطبيعية ، وكل تقدم في العلوم الطبيعية هو تقدم للفهم المادى للطبيعة

ولنأخذ مثلا ثانيا مأخوذا هذه المرة من الحياة الاجتماعية فمثلا: لماذا يوجد اغنياء وفقراء ؟ هذا سؤال يسأله الكثيرون وخاصة من الفقراء

الاجابة المثالية الاكثر صراحة لهذه المسألة هو القول ببساطة ، لان الله جعلهم كذلك ، فارادة الله ان يكون البعض اغنياء والبعض فقراء

ولكن تنتشر اجابات مثالية اخرى اقل صراحة مثلا لان بعض الناس مدبرون وبعيدو النظر ، فهم ينمون مواردهم ويثرون ، بينما الاخرون مبذرون واغبياء، فهم يظلون فقراء واولئك الذين ينحازون لهذا النوع من التفسير يقولون ان الامر كله يرجع الى « طبيعة الانسان» الخالدة، فطبيعة الانسان والمجتمع تولد بالضرورة تميزا بين الغني والفقير .

فتماما كما في حالة الرعد ، يبحث المثاليون في حالة الغنى والفقر، عن سبب روحي ، ان لم يكن هو ارادة اله العقل المقدس ، فليكن بعض الخصائص الفطرية التي تميز الذهن الانساني.

اما المادي فعلى العكس من ذلك يبحث عن السبب في الظروف المادية الاقتصادية ، للحياة الاجتماعية ، فاذا كان المجتمع ينقسم الى غني وفقير فذلك لان انتاج وسائل الحياة المادية منظم بطريقة تجعل البعض مالكا للارض وغيرها من وسائل الانتاج بينما يجب على الاخرين ان يعملوا من اجلهم، ومهما عملوا جادين ، ومهما دبروا وادخروا ، فسيظل غير المالكين ، فقراء بينما سيزداد المالكون غنى كثمرة لعمل هؤلاء

ومن هنا يمكن ان يكون الفارق بين المفهوم المادي والمثالي في مسائل كهذه هاما جدا وليس الفارق هاما من الناحية النظرية فحسب بل من الناحية العملية كذلك.

فالمفهوم المادي عن الرعد مثلا يساعدنا على الاحتياط منه مثل تجهيز المباني بمانعات الصواعق ، لكن اذا كان تفسيرنا مثاليا فكل ما نستطيع عمله هو ان نقبل الوضع القائم للامور — فنبتهج بحالتنا الفضلى ونمنح القليل من الصدقة ان كنا اغنياء ونلعن قدرنا ان كنا فقراء ، ولكنا اذا تسلحنا بالفهم المادي للمجتمع فسنبدأ في البحث عن طريق لتغير المجتمع

وهكذا فمن الواضح انه بينما توجد للبعض مصلحة اكيدة في المثالية فان من صالح الاغلبية العظمى ان يتعلموا التفكير وفهم الاشياء بطريقة مادية

فكيف اذن نستطيع ان نعرف المادية والمثالية ، وان نحدد الفارق بينهما في عبارات عامة حتى نحدد جوهر المسألة؟

كان هذا هـو ما فعله انجلز

ان المسألة الاساسية الكبيرة لكل فلسفـة — وعلـى الخصوص الفلسفة الحديثة — هي تلك الخاصة بالعلاقـة بين الفكر والوجـود — والاجابة التي قدمها الفلاسفة لهذا السؤال قد قسمتهم الى معسكرين كبيرين ، فمن اكدوا اسبقية الروح على الطبيعة وبذلك افترضوا خلق العالـم بطريقة او باخرى ، كونوا معسكر المثالية ، اما الاخرون الذين نظروا الى الطبيعة باعتبارها الاسبق فينتمون الـى مختلف مدارس المادية » (٢).

فالمثالية طريقة لتفسير الاشياء تعتبر الروحي سابقا علـى المادي بينما تعتبر المادية المادة اسبق ، والمثاليـة تفترض ان كل ما هو مادي يتوقف ويتحدد بشيء روحي ، بينما تدرك المادية ان كل شيء روحي يتوقف ويتحدد بشيء مادي .ويظهر هذا الفارق سواء في المفاهيم الفلسفية العامة للعالم ككل ، ام في مفاهيم الاشياء والاحداث الخاصة

المثالية وما فوق الطبيعة

المثالية هي في الاساس دين ، لاهوت يقول لينين فـي الملاحظات الفلسفية « ان المثالية هي الكهنوتية » ، وكل مثالية هي استمرار للمعالجة الدينية للمسائل ، وان تكن بعـض النظريات المثاليـة تخلع رداءها الديني ، فلا يمكـن الفصل بين المثالية وبين الخرافة والايمان بما فوق الطبيعة ، وبقوى غامضة غير معروفة

ومن الناحية الاخرى تبحث المادية عن التفسيرات بعبارة

---

(٢) لودفيج فيورباخ . الفصل الثاني .

تنتمي الى العالم المادي ، في عوامل يمكن التحقق منها وفهمها والسيطرة عليها

وهكذا فان جذور المفهوم المثالي للاشياء هي ذاتهـا جذور الدين

فبالنسبة للمتدينين لا تجد المفاهيم الدينية ، اي مفاهيم الكائنات الروحية فيما فوق الطبيعة ، تبريرهـا عمومـا ، في شواهـد الحواس بالطبع وانما في شيء يضرب بجذوره عميقا في الطبيعة الروحية للانسان والواقـع انـه من الصحيح ان لهذه المفاهيم جذورا عميقـة في التطور التاريخي للوعي الانساني ،لكن ما مصدرها ؟ وكيف نشأت هذه المفاهيم في المحل الاول ؟ لا يمكننا بالتأكيد اعتبار هذه المفاهيم ـ كمـا يحدثنا الدين ـ نتاجا لوحي مقدس ، او ناشئة عن اي سبب اخـر فوق الطبيعة ، اذا وجدنا ان لها ذاتها مصدرا طبيعيـا

ونحن نستطيع في الواقع ان نتتبع مثل هذا المصدر

ان مفاهيم ما فوق الطبيعـة والافكار الدينية عموما تدين بمصدرها اولا لعجـز النـاس وجهلهم في مواجهة قـوى الطبيعة ، فالقـوى التي لا يستطيع الناس فهمهـا تتجسـد وتبدو كمظهر لنشاط الارواح

فمثلا كانت احداث مفزعة كالرعد ـ كما رأينا ـ تفسـر تفسيرا خياليا بانها راجعة الى غضب الالهة ، كما ان ظواهر هامة مثل نمـو النباتات قد ارجعـت الى نشـاط الارواح فكانوا يؤمنون ان روح القمح تجعل القمح ينمـو

ومنذ اكثـر العصور بدائيـة جسـد النـاس القـوى الطبيعية بهذه الطريقة ومع مولـد المجتمع الطبقي ، حين اجبر الناس على التصرف وفق علاقات اجتماعية سيطـرت عليهم ولم يستطيعوا فهمها، ابتدعـوا نظما فوق الطبيعـة تعتبر ازدواجا لوضع المجتمع ، فابتدعت الهة تعلو البشرية،

تماما كما كان الملوك والسادة يسودون الناس العاديين

ففي قلب كل دين، وكل مثالية ، هذا النـــوع مـــن ازدواج العالم ، انه ثنائي ، يبتكر مثلا مسيطرا او عالما فوق الطبيعة يواجه العالم المادي الحقيقي

ومن اخص خصائص المثالية نقائض مثل الروح والجسم، الله والانسان،مملكة السماء ومملكة الارض، الاشكال والافكار التي يدركها الذهـــن وعالم الواقـــــع المادي الذي تحســـه الحواس

وهناك دائمـــا بالنسبة للمثالية عالم غير مادي اعلى واكثر صدقا ـــ سبق هذا العالم المادي وهو المصدر النهائي لهذا العالم وسببه ، ويخضع له هذا العالم المادي، اما بالنســـبة للمادية فهناك عالم واحد ، العالم المادي

ونحن نعني بالمثالية في الفلسفة كل مذهب يقول انه يوجد خلف الواقع المادي واقع روحي اعلى علـــى اساسه نفســـر الواقع المادي في نهاية الامر.

بعض انواع الفلسفة المثالية في يومنا

قد يكون من المفيد هنا أن نقـــدم بضع ملاحظات تتعلـــق ببعض المذاهب المميزة للفلسفة البورجوازية الحديثة ، فطوال ثلثمائة عام عرض نوع من الفلسفة يسمى « المثالية الذاتية » وتعلمنا هذه الفلسفة ان العالم المادي لا يوجـــد على الاطلاق فلا توجد سوى الاحساسات والافكار في اذهاننا وليس ثمـــة واقع مادي يتجاوب معها

ومرة اخرى عرضت هذه المثالية الذاتية في شكل مذهـــب للمعرفة : ينكر امكان معرفتنا لاي شيء عن الواقع الموضوعي خارجنا ، ويقول انا لا نستطيع ان نعرف سوى المظاهر وحدها

وليس « الاشياء في ذاتها »

وقد اصبح هذا الطراز من المثالية عصريا للغاية اليوم بل انه ليعرض كانه « علمي » الى اقصى حد ، فحين كانت الراسمالية لا تزال قوة تقدمية اعتاد مفكروها ان يؤمنوا بأن في وسعنا ان نعرف المزيد والمزيد عن العالم الواقعي وبذلك نسيطر على القوى الطبيعية ونصلح نصيب البشرية بشكل لا حدود له، اما اليوم فانهم يقولون انه لا يمكن معرفة العالم الواقعي ، وانه مسرح لقوى غامضة تتجاوز ادراكنا

وقد رأينا ان المثالية تؤمن دائما — في الاساس — بعالمين ، عالم المثل والعالم المادي ، وهي تضع عالم المثل سابقا للعالم المادي وفوقه ، ومن الناحية الاخرى لا تعرف المادية سوى عالم واحد، العالم المادي وترفض ان تبتدع عالما مثاليا ثانيا خياليا يعلوه

ولا يمكن التوفيق بين المادية والمثالية، لكن هذا لا يمنع كثيرا من الفلاسفة من محاولة التوفيق والجمع بينهما ، وهناك ايضا في الفلسفة بعض محاولات المهادنة بين المثالية والمادية.

واحدى هذه المحاولات هو ما يسمى عادة « بالثنائية » ومثل هذه الفلسفة التوفيقية ، تؤكد وجود الروحي منفصلا ومتميزا عن المادي — لكنها تحاول وضع الاثنين على نفس المستوى ، وهذا فهي تعامل عالم المادة غير الحية بطريقة مادية تماما فهي تقول ان هذا هو مجال نشاط القوى الطبيعية ، وان العوامل الروحية لا تتدخل فيه وليست لها علاقة بأي حال ، لكنها حين تصل الى عالم الفكر والمجتمع فان هذه الفلسفة تقول ان هذا هو مجال نشاط الروح، انها تزعم ان علينا ان نبحث هنا عن التفسير في عبارات مثالية لا مادية

وهكذا ينتهي مثل هذا التوفيق بين المادية والمثالية الى ان علينا الاستمرار في تبني المفاهيم المثالية ومعارضة المادية في كل المسائل الهامة التي تخص الناس والمجتمع والتاريخ

وهناك فلسفة توفيقية اخرى تعرف باسم الواقعية » ، وقد ظهرت هذه الفلسفة في شكلها الحديث في معارضة المثالية الذاتية

ويقول الفلاسفة « الواقعيون » ان العالم المادي الخارجي يوجد حقا مستقلا عن ادراكنا الحسي ، ويعكسه ادراكنا الحسي بطريقة ما ، وهنا يتفق « الواقعيون » مع الماديين في معارضة المثالية الذاتية ، والحق انك لا تستطيع ان تكون ماديا الا اذا كنت واقعيا تماما في مسألة الوجود الفعلي للعالم المادي

لكن مجرد القول بوجود العالم الخارجي مستقلا عن ادراكنا له لا يجعلك ماديا ، فعلى سبيل المثال كان توما الاكويني الفيلسوف الكاثوليكي الكبير في العصور الوسطى واقعيا » بهذا المعنى ، وحتى اليوم يعتبر معظم رجال اللاهوت الكاثوليك من الهرطقة الا تكون « واقعيا » في الفلسفة لكنهم في نفس الوقت يزعمون ان العالم المادي — الذي يوجد بالفعل — قد خلقه الله، قد خلقته قوة روحية، وهم ابعد ما يكونون عن المادية ، انهم مثاليون

بالاضافة الى هذا فقد اساء الفلاسفة كثيرا استخدام كلمة « الواقعية » فانك تستطيع ان تسمي نفسك « واقعيا » وبعض الفلاسفة يؤمنون بأن عالم الاشياء المادية ليس هو وحده الواقعي لكن هناك ايضا — خارج الزمان والمكان — عالما واقعيا من القضايا الشاملة » من جواهر الاشياء المجردة ، ومن هنا فانهم يسمون انفسهم واقعيين واخرون يقولون انه على الرغم من انه لا يوجد شيء سوى

الادراكات الحسية في ذهننا فأن هذه الادراكات واقعية ، ومن هنا فهم يسمون انفسهم « واقعيين » كذلك ، وكل هذا يوضح كيف ان بعض الفلاسفة مخادعون جدا في استخدامهم للكلمات .

التعاليم الاساسية في المادية في مواجهة المثالية

في مواجهة كل اشكال المثالية، وكل التوفيقات المخادعة بين المادية والمثالية ، يمكننا ان نصوغ التعاليم الاساسية للمادية ببساطة ووضوح

ولكي ندرك جوهر هذه التعاليم يجب ايضا ان نفهم القضايا الاساسية في كل اشكال المثالية ، وهناك ثلاث قضايا اساسية للمثالية :

١ ــ تؤكد المثالية ان العالم المادي تابع للعالم الروحي

٢ ــ تؤكد المثالية ان الروح ، او الذهن ، او الفكرة ، يمكن ان توجد ــ وتوجد بالفعل ــ منفصلة عن المادة (واكثر اشكال هذه القضية تطرفا هو المثالية الذاتية التي تؤكد ان المادة لا توجد على الاطلاق وانها مجرد وهم)

٣ ــ تؤكد المثالية وجود مملكة غامضة وغير معروفة « فوق » او « وراء » او « خلف » ما يمكن التأكد منه ومعرفته عن طريق الحواس والخبرة والعلم

وتقف التعاليم الاساسية للمادية في مواجهة هذه القضايا المثالية الثلاثة

١ ــ تعلمنا المادية ان العالم مادي بطبيعته ذاته ، وان كل ما هو موجوديوجد على اساس الاسباب المادية، وينشأ ويتطور وفقا لقوانين حركة المادة

٢ ــ تعلمنا المادية ان المادة حقيقة موضوعية توجد خارج ذهننا ومستقلة عنه ، وان الذهني لا يوجد منفصلا عن المادي، بل ان كل ما هو ذهني او روحي هو نتاج لعمليات مادية .

٢ ــ تعلمنا المادية انه من الممكن تماما معرفة العالم وقوانينه ، وانه على الرغم من اننا قد لا نعرف الكثير في العالم المادي فليس هناك مجال للواقع غير قابل للمعرفة ويقع خارج العالم المادي

وتتميز الفلسفة الماركسية بمادياتها المتماسكة تماما وعلى طول الخط ، وبأنها لا تقدم تنازلا ايا كان للمثالية في اية نقطة

المادية والمثالية في الممارسة

سبق ان قلنا ان التعارض بين المثالية والمادية، ذلك التعارض الذي عرضناه من قبل في عبارات عامة ليس تعارضا بين نظريات مجردة حول طبيعة العالم ولكنه تعارض بين طرق مختلفة لفهم وتفسير كل مسألة ، وهذا هو السبب في اهميته العميقة

ولندرس الان بعض الطرق العملية التي يظهر فيها التعارض بين المادية والمثالية

يقول لنا المثاليون ــ مثلا ــ الا نعتمد « كثيرا جدا » على العلم ، فهم يخبروننا ان اكثر الحقائق اهمية تتجاوز حدود العلم ؛ ومن هنا يشجعوننا على الا نؤمن بأشياء على اساس الشواهد والخبرة والممارسة ، وان نأخذها بثقة من هؤلاء الذين يدعون معرفة افضل ، وان لديهم مصدرا « اعلى » للمعلومات

وبهذه الطريقة فأن المثالية صديق حميم وسند لكل اشكال الدعاية الرجعية ، انها فلسفة الصحافة الرأسمالية والـ « ب.ب.س » انها تقف في صف كل انواع الخرافات، وتمنعنا من التفكير لانفسنا ، ومن المعالجة العلمية للمشكلات

الاخلاقية والاجتماعية

ويقول لنا المثاليون كذلك ان اهم شيء بالنسبة لنا جميعا هو الحياة الداخلية للروح ، انهم يخبروننا اننا لم نحل ابدا مشكلاتنا الانسانية الا بنوع من التجدد الداخلي وهذه فكرة محببة في خطابات الممتلئين ، لكن كثيرا من العمال يقعون فيها ايضا ، مثلا — في المصانع التي تنشط فيها جماعة التسلح الخلقي » انهم يقولون لك الا تناضل من اجل ظروف افضل بل أن تصلح روحك ، وهم لا يقولون لك ان افضل الطرق لاصلاح نفسك ماديا ومعنويا على السواء هي المساهمة في النضال من اجل السلم والاشتراكية

وهناك ايضا معالجة مثالية شائعة وسط كثير من الاشتراكيين ، فكثير من المخلصين مثلا يؤمنون بأن العيب الجوهري في الرأسمالية هو ان البضائع لا توزع بالعدل ، وانه لو استطعنا ان نقنع الجميع — بما في ذلك الرأسماليين — بقبول مفهوم جديد للعدالة والانصاف ، فسنستطيع ان نقضي على شرور الرأسمالية ، فليست الاشتراكية بالنسبة لهم سوى تحقيق لفكرة مجردة عن العدالة

وتكمن مثالية هذا الايمان في افتراضه ان **الافكار** التي نؤمن بها هي التي تحدد الطريقة التي نعيش بها والطريقة التي ينظم بها المجتمع والذين يفكرون بهذه الطريقة ينسون ان يبحثوا عن الاسباب **المادية** ، فالذي يحدد في الواقع طريقة توزيع البضائع في المجتمع الرأسمالي — حيث يتمتع جزء من المجتمع بالثروة بينما يعيش الجزء الاخر الاكبر في البؤس — ليس هو افكار الناس حول توزيع الثروة وانما هو الحقيقة المادية ، حقيقة ان اسلوب الانتاج يقوم على استغلال الرأسمالي للعامل ، وطالما ظل هذا الاسلوب في الانتاج قائما ، فستظل الثروة والبؤس قائمان ، وستظل

الافكار الرأسمالية عن العدالة تعارض الافكار الاشتراكية عنها ، ومهمة الاشتراكيين بالتالي هي تنظيم وقيادة صراع الطبقة العاملة ضد الطبقة الرأسمالية حتى تنتزع الطبقة العاملة السلطة من الطبقة الرأسمالية

واذا لم ندرك ذلك فلن نستطيع ان نجد طريق النضال الفعال من اجل الاشتراكية ، وسنجد ان اشتراكيينا المثاليين يصابون على الدوام بالخيبة والفشل وقد كانت هذه في الواقع هي خبرة الاشتراكية البريطانية

ويمكننا أن نرى من هذه الامثلة كيف نستخدم المثالية كسلاح للرجعية ، وكيف ان الاشتراكيين حين يقبلون المثالية يتأثرون بايديولوجية الرأسماليين فنحن لا نستطيع ان نأخذ الافكار الرأسمالية ونستخدمها لاغراض النظرية الاشتراكية **بقدر ما لا نستطيع** استخدام جهاز الدولة الرأسمالي ، بكل مؤسساته وموظفيه لاغراض بناء الاشتراكية

والحق ان المثالية كانت طيلة التاريخ سلاحا للرجعية ومهما كانت روعة المذاهب الفلسفية التي ابتدعت فقد استخدمت المثالية كوسيلة لتبرير حكم الطبقة المستغلة ولخداع المستغلين

ولا يعني هذا انه لم يحدث ابدا ، ان وجدت الحقائق تعبيرا عنها في رداء مثالي، لقد تم ذلك بالطبع ، ذلك ان للمثالية جذورا عميقة في طرق تفكيرنا ، وكثيرا ما يغلف الناس افكارهم وامانيهم في رداء مثالي ، لكن الشكل المثالي هو دائما عقبة وعائق امام التعبير عن الحقيقة ـ ومصدر للخلط والخطأ

كذلك فقد تبنت حركات تقدمية في الماضي ايديولوجية

مثالية وكافحت تحت رايتها لكن هذا لم يوضح الا ان هذه الحركات كانتتحمل في ذاتها بذور الرجعية في المستقبل — الى الحد الذي كانت تمثل فيه تطلع طبقة مستغلة جديدة الى الوصول للسلطة او انها ذاتها كانت متأثرة بأفكار رجعية ، او ان ذلك كان دلالة على ضعفها وعدم نضجها.

فقد كافحت الحركة الثورية العظيمة للبورجوازية الانجليزية في القرن السابع عشر مثلا في ظل شعارات مثالية دينية ،لكن نفس التجاء كروميل الى الله لتبرير اعدامه للملك هو الذي استخدمه للقضاء على دعاة المساواة

وكان لدى الديموقراطيين والاشتراكيين الاول كثير من الافكار المثالية ، لكن هذا الامر يوضح في حالتهم عدم نضوج وضعف الحركة، وكان من الواجب التغلب على الاوهام المثالية اذا ارادت حركة الطبقة العاملة الثورية ان تنبعث وان تنتصر ، ومع ازدياد قوة الحركة كان استمرار الافكار المثالية داخلها يمثل تأثيرا رجعيا دخيلا

ونستطيع ان نقول بحق ان المثالية في الاساس قوة محافظة — ايديولوجية تساعد في الدفاع عن الامور كما هي عليه ،وعن استمرار الاوهام في اذهان الناس حول ظروفهم الحقيقية

ومن الناحية الاخرى يولد كل تقدم اجتماعي حقيقي ، — كل زيادة في قوى الانتاج ، كل تقدم في العلم — المادية، وتدفعه الافكار المادية الى الامام وقد كان كل تاريخ الفكر الانساني هو تاريخ صراع المادية ضد المثالية ، وهزيمة الاوهام والخيالات والمثالية

وتعلمنا المادية ان نثق في انفسنا ، في الطبقة العاملة، في الشعب انها تعلمنا انه ليست هناك اسرار تتجاوز الفهم ، بحيث لا يكون علينا ان نقبل ما هو قائم على انه

ارادة الله ، وان علينا أن نرفض بازدراء تعاليـــم « الثقات » الذين ينصبون انفسهم سادة لنا ، واننا نستطيع ، نحـــن انفسنا ، أن نقيم طبيعـــة المجتمع لنكون بالتالي قادرين على تغييره

الفصل الثالث

المادية الميكانيكية

العالم المتغير وكيف نفهمه

كانت المادية تبـــل ماركس اساسا ماديـــة ميكانيكيـــة. وكثيرا ما نسمع الناس يشكـــون مـــن ان الماديين يســـعون الى الهبوط بكل شيء في العالم ـــ بما في ذلك الحياة والذهن الى نظام من الميكانيكية التي لا روح لها ، من الفعل الميكانيكي المتبادل للاجسام ويشير هذا الى المادية الميكانيكية ، بيسد أن المادية الماركسية مادية جدلية وليست ماديـــة ميكانيكية ، ولكي نفهم معنى ذلك يجب أولا ان نفهم المادية الميكانيكيـــــة ذاتها

ونستطيع معالجة هذه المسألة بالتساؤل عن الكيفية التي حاول الماديون بها فهم مختلف عمليات التغير التي نلاحظهـــا في كل مكان في العالم.

العالم مليء بالتغيير ، فالليل يتلو النهار والنهار يعقب الليل والفصول تتتابع ، والناس يولدون ويعمرون ويموتون ، وكل فلسفة تعترف بالتغير حقيقة قائمة. لكن المسألة هي كيف نفهم التغير الذي نلحظه فيكل مكان ؟

وفي المحل الاول يمكننا ان نفهم التغير بطريقة مثاليـــة او بطريقة مادية .

فالمثالية تتتبع التغير في فكرة او قصد معين — ان لم يكن انساني فهو الهي ، وهكذا فالتغيرات في العالم المادي بالنسبة للمثالية ، دفعتها وولدتها اشياء خارج المادة ، اشياء غير مادية، ولا تخضع لقوانين العالم المادي.

لكن المادية تتتبع التغير في اسباب مادية ، وبعبارة اخرى انها تسعى الى تفسير ما يحدث في العالم المادي من العالم المادي ذاته

ولكن بينما اعترف الجميع بحدوث التغير ، اذ لا يستطيع احد انكاره ، حاول الفلاسفة الوصول الى شيء لا يتغير — شيء دائم ، شيء لا يقبل التغيير — خارج او داخل عملية التغير

ويمثل هذا عادة جزءا اساسيا من ايديولوجية الطبقة المستغلة فهم يخشون التغير لانهم يخشون ان يكتسحهم هم ايضا، ولهذا فهم يبحثون دائما عن شيء ساكن ثابت لا يخضع للتغير ، وهم يحاولون ان يتعلقوا بهذا الشيء ايا كان

وقد بحث الماديون الاوائل ايضا عن هذا الشيء ،فبحثوا خلف المظاهر المتغيرة عن شيء لا يتغير ابدا ، ولكن بينما بحث المثاليون عن هذا الشيء الخالد غير المتغير في عالم الروح فان هؤلاء الماديين بحثوا عنه في العالم المادي ذاته ، ووجدوه في الجزيء المادي النهائي — الذرة الخالدة التي لا تقبل الانقسام.

فكل التغيرات بالنسبة لهؤلاء الماديين تحدثها حركة وتفاعل الذرات **غير المتغيرة**

وتلك نظرية قديمة عرضت منذ ما يزيد عن الفي عام في اليونان ، وفيما قبل ذلك في الهند

وقدكانت هذه النظرية في عصرها نظرية تقدمية جدا ، وسلاحا عظيما في مواجهة المثالية والخرافة فالشاعر الروماني لوكريتس مثلا يشرح في قصيدته الفلسفية « حول

طبيعة الاشياء »ان غرض النظرية الذرية للفيلسوف اليوناني ابيقور هو ايضاح « ما هي العناصر التي يتكون منها كل شيء، وكيف يحدث كل شيء دون تدخل الالهة » (١)

وهكذا ولدت مادية ترى العالم مكونا من جزيئات مادية جامدة لا يمكن النفاذ منها ، وتفهم تغير باعتباره ناشئا فقط عن حركة مثل هذه الجزيئات وفعلها المتبادل

وقد بعثت هذه النظرية في العصور الحديثة ، وتحول اليها الفلاسفة والعلماء في القرن السادس عشر والسابع عشر في صراعهم ضد الفلسفة الكاثوليكية الاقطاعية، لكن هذه المادية الحديثة كانت اكثر غنى في محتواها من المادية القديمة، فقد حاولت ان تكتشف قوانين الفعل المتبادل للجزيئات المادية وبذلك تقدم صورة عن الطريقة التي تنتج بها كل الظواهر — من مجرد التغيرات الفيزيائية حتى حياة الانسان — من حركة اجزاء المادة المنفصلة وفعلها المتبادل ، وبهذه الطريقة ظهرت في القرن الثامن عشر النظريات الحديثة عن المادية الميكانيكية.

فلسفة بورجوازية

كانت المادية الميكانيكية في جوهرها ايديولوجية البورجوازية الصاعدة واسلوبها النظري ، وحتى نستطيع فهمها يجب ان نفهم اولا انها قامت وتطورت في معارضة الايديولوجية الاقطاعية ، وان سلاحها الحاد كان موجها ضد الافكار الاقطاعية ، وانها كانت في الواقع اكثر اشكال معارضة البورجوازية للنظرة الاقطاعية جذرية

فقد كانت العلاقات الاجتماعية الاقطاعية ممزقة في فترة

---

(١) لوكريتس ، حول طبيعة الاشياء الكتاب الرابع

نشوء البورجوازية ، وكذلك كانت الافكار الاقطاعية المتجسدة في الفلسفة الكاثوليكية التي تضفي طابع القداسة على هذه العلاقات الاجتماعية

فالنظام الاقطاعي الذي يقوم اساسه الاقتصادي على استغلال الملاك الاقطاعيين للاقنان يتضمن علاقات اجتماعية معقدة من التبعية والخضوع والولاء ، ولم ينعكس كل هذا في الفلسفة الاجتماعية والسياسية وحدها بل في فلسفة الطبيعة كذلك

فتتميز فلسفة الطبيعة في العصر الاقطاعي بانها تفسر كل شيء وفق مكانه الصحيح في نظام الكون ، وفق مركزه المفروض من التبعية والخضوع في هذا النظام، والهدف او الغاية الذي وجد لخدمته

وقد حطم العلماء والفلاسفة البورجوازيون هذه الافكار الاقطاعية عن الطبيعة ، واعتبروا الطبيعة نظاما من الاجسام متبادلة الفعل، ورفضوا كل العقائد الاقطاعية ، ودعوا الى دراسة الطبيعة لاكتشاف الطريقة التي تعمل بها حقا

وقد تقدمت دراسة الطبيعة جنبا الى جنب مع الاكتشافات الجغرافية ، ومع نمو التجارة والمواصلات ، وتحسن الالات والصناعات وقد تحققت اكبر القفزات في ميادين العلوم الميكانيكية لارتباطها الوثيق باحتياجات التكنولوجيا ، وهكذا اغتنت النظرية المادية كنتيجة للبحث العلمي في الطبيعة وعلى الخصوص في علوم الميكانيكا

وقد حدد هذا منذ البداية الاولى نواحي القوة والضعف في النظرية المادية ، وانجازاتها وحدودها

يقول انجلز ان ما دفع هذه النظرية الى الامام هو « التقدم القوي المتزايد الاندفاع للعلم والصناعة » ، لكنها ظلت « ميكانيكية اساسا » لان العلوم الميكانيكية وحدها هي التي

كانت قد احرزت درجة عالية من التطور ، وكان « قصورهـا المميز والحتمي في ذلك الوقت » هو « اقتصارها على تطبيق معايير علم الميكانيكا » (٢)

الا ان الطريقة الميكانيكية لفهم الطبيعة لم تنشأ من مجـرد ان العلوم الميكانيكية وحدها هي التي كانت قد حققت تقدمـا كبيرا في ذلك الوقت ، فقد كانت هذه الطريقة عميقة الجذور في النظرة الطبقية لاكثر فلاسفة البورجوازية تقدما ، وقـد ادى بهم هذا الى ان يستوحوا من علوم الميكانيكا وحدها

فكما وقفت البورجوازية وهي تطوح بالمجتمع الاقطاعـي تدافع عن حرية الفرد والمساواة وتطور السوق الحرة، فكذلك وقف اكثر فلاسفة البورجوازية تقدمـا ـ الماديون ـ وهـم يطوحون بالافكار الاقطاعية ـ يعلنون ان العالم مكون مـن جزيئات مادية منفصلة تتبادل التأثير فيما بينها وفقا لقوانيـن الميكانيكا

وتعكس هذه النظرية عن الطبيعة ، العلاقات الاجتماعية البوراجوزية بنفس القدر الذي كانت تعكس به النظريات التي حلت هي محلها العلاقات الاجتماعية الاقطاعية ، وتمامـا كما حطمت العلاقات الاجتماعية البورجوازية الجديدة القيود الاقطاعية وجعلت من الممكن بدء تطور كبير جديد لقوى الانتاج فكذلك حطمت النظرية البورجوازية المتوافقة معها عن الطبيعة العوائق التي وضعتها الافكـار الاقطاعية في وجـه البحث العلمي وجعلت من الممكن بدء تطور كبير جديد للبحث العلمي

وكانما وجدت النظرة الفلسفية تأكيدا لها في العلم ، وقدم العلم المـواد اللازمـة لتطوير النظـرة الفلسفيـة واغنائها بالتفصيلات

---

(٢) انجلز لودفيج فيورباخ : الفصل الثاني .

العالم والآلة

لا يتألف العالم (في نظر الماديين الميكانيكيين) الا من جزيئات مادية ذات فعل متبادل ، لكل جزيء وجوده المستقل المتميز عن غيره وهي في مجموعها تكون العالم ، ومجموع افعالها المتبادلة يشكل مجموع ما يحدث في العالم ، وهذه الافعال المتبادلة من طراز ميكانيكي ، اي انها تقتصر على مجرد التأثير الخارجي لجزيء على الاخر

وتعني هذه النظرية النظر الى العالم كله باعتباره مجرد آلة مجرد جهاز آلي

ومن وجهة النظر هذه فان السؤال الذي يثار عند دراسة اي جزء من اجزاء الطبيعة هو نفس السؤال الذي يثار بشأن آلة ما وهو : ما هي آليتها ؛ كيف تعمل ؟

ونجد مثلا على ذلك في دراسة نيوتن للمجموعة الشمسية فقد تبنى نيوتن نفس الفكرة العامة لدى المادي اليوناني ابيقور الذي كان يعتبر العالم المادي مكونا من جزيئات تتحرك في الفراغ ، ولكن عندما كانت تواجه ابيقور اية ظاهرة طبيعية خاصة ، مثل حركة الشمس والكواكب ، فانه لم يكن يهتم على الاطلاق بتقديم دراسة دقيقة لها ، فهو يقول مثلا بخصوص الحركة الظاهرية للشمس في السماء من الشرق الى الغربان المهم هو ان ندرك ان الشمس ليست الها بل مجرد مجموعة من الذرات ، ولم يكن في حاجة لاي دراسة للآلية الفعلية لحركتها ، فهو يقول انه ربما كانت الشمس تدور وتدور حول الارض ، ولكنها ربما كانت تتحلل وتنفصل ذراتها كل مساء بحيث ان الشمس التي نراها في اليوم التالي هي « شمس جديدة » . . . فكل هذه المسائل غير هامة لديه . أما نيوتن فقد اهتم بان يوضح بدقة كيف تعمل المجموعة الشمسية ، وبان

يشرح آليتها في عبارات من الجاذبية والقوى الميكانيكية

ولكن كما لم يهتم بكيفية عمل المجموعة الشمسية لم يهتم نيوتن بكيف ظهرت وتطورت، لقد نظر اليها كآلة ثابتة ربماكان الله قد خلقها ، فليست القضية التي يتعرض لها كيف ظهرت وكيف تطورت ، وانما هي كيف تعمل

وتظهر نفس المعالجة الميكانيكية في اكتشاف هارفي للدورة الدموية ، وجوهر اكتشافه هو انه اوضح آلية ميكانيكية الدورة الدموية ، معتبرا القلب مضخة تدفع الدم خلال الشرايين بحيث يعود خلال الاوردة ، ويحكم العملية كلها عدد من الصمامات

ولكي نفهم النظرة الميكانيكية بطريقة افضل لنسأل انفسنا. ما هي الآلة ؟ ما هي خصائصها ؟

أ ــ تتكون الآلة من اجزاء دائمة تتوافق فيما بينها

ب ــ وتحتاج الى قوة دافعة تحركها

جـ ــ فاذا ما تحركت تفاعلت اجزاؤها ، وتتحقق النتائج وفقا لقوانين يمكن تحديدها بدقة

فلندرس مثلا آلة كالساعة (أ) انها تتكون من عدد من الاجزاء ــ تروس وروافع وما الى ذلك ــ مركبة فيما بينها بدقة (ب) ويجب ملؤها (جـ) وعندئذ عندما يفك (الزنبرك) تتفاعل الاجزاء وفقا لقوانين يعرفها صانعو الساعات بدقة محدثة الحركات المنتظمة للعقارب على الميناء

فاذا اردت ان تعرف كيف تعمل آلة كالساعة وجب ان تفكها ، وتكتشف اجزاءها ، وكيف تتوافق فيما بينها ، وكيف تحدث بافعالها المتبادلة ــ عندما تبدأ الآلة في الحركة نتيجة فعل القوى المحركة اللازمة ــ مجموع الحركة المميزة للآلة بقي سيرها.

وبهـذه الطريقة ينظر الماديون الميكانيكيون للطبيعـــة ، انهم يسعون الى تمزيقها ليكتشفوا الاجزاء النهائية المكونة لها وكيف تتوافق فيما بينها ،وكيف يحـدث فعلها المتبادل كـــل التغيرات التي ندركها ، كل ظواهر العالم؛ ثم بعد ان يكتشفوا كيف تعمل الالة ، يسعون لاكتشاف كيف يصلحونها ، كيـف يحسنونها كيف يغيرونها ويجعلونها تنتج نتائج جديدة تتفق مع احتياجات الانسان

قوة وانجازات المادية الميكانيكية

كانت المادية الميكانيكية علامة بارزة فيطريق فهمنا للطبيعة كانت خطوة تقدمية كبرى خطاها مفكرو البورجوازية ؛ وضربة للمثالية.

وقد كان الميكانيكيون ماديين تماما لانهم شنوا حربـــا تقدمية ضد المثالية والكهنوتية حين حاولوا ان يوسعوا نفس المفاهيم الميكانيكية المستخدمة في الدراسة العلميـة للطبيعة لتشمل مملكة الذهن والمجتمع. لقد سعوا لان يضعوا الانسان وكل نشاطه الروحي داخل النظام الميكانيكي للعالم الطبيعي

وكان اكثر الميكانيكيين راديكالية لا ينظرون فقط الى العمليات الفيزيائية ،ولا الى حياة النبات والحيوان وحدها بل الـى الانسان ذاته باعتباره آلة فمنذ القرن السابع عشر كـان الفيلسوف الفرنسي الكبير ديكارت قد قال ان كل الحيوانات هي آلات معقدة (أوتوما) وان الانسان يختلـف عن ذلـك لان له روحا ، ولكن في القرن الثامن عشر كتب احد اتبـاع ديكارت ــ عالم الفيزياء لامترى ــ كتابا بعنوان مثير هـــو « الانسان آلة » وقال ان الناس ايضا الآت ولكنهـا معقـدة جدا

وقد اعتبر هذا المذهب مذهبا مثيرا للاشمئزاز الى اقصـى

حد ، واهانة فظيعة للطبيعة الانسانية فضلا عن الله ، فـي حين انه بالنسبة لعصره كان فكرة تقدمية عن الانسان ، فقد كانت فكرة ، ان الناس الات تقدما في فهم طبيعة الانسان بالمقارنة بفكرة انهم قطع بائسةمن الصلصال تسكنهـا ارواح خالدة ، وكانت نسبيا فكرة اكثر انسانية

فالمادي الانجليزي والاشتراكي الطوباوي روبرت اوين مثلا يقول لرجال الصناعة الورعين في عصره

« لقد اوضحت لكم الخبرة الفارق بين النتائج التي تحصلون عليها من آلة دقيقة نظيفة منظمة ومعتنى بها ، وبين تلك التي تنتجها لكم آلة تركت لتتسخ وتفقد نظامها وبالتالي لم يعد من الممكن اصلاحها . . . فاذا كانت العناية الواجبة لآلاتكم البكماء يمكن ان تنتج مثل هذه المزايا فماذا يمكن ان نتوقعه اذا خصصتم اهتماما موازيا له لآلاتكم الحية تلك الآلات المشيدة باحكام اروع ؟ » (٣)

بيد ان هذه الانسانية كانت في افضل احوالها انسانية بورجوازية فقد كانت تضرب بجذورها ــ كالمادية الميكانيكية كلها ــ في النظرة الطبقية للبورجوازية ، فجذور فكرة ان الانسان آلة هي فكرة ان الانسان في الانتاج ليس اكثر من شيء ملحق بالالة واذا كانت هذه الفكرة تتضمن من ناحية ان من الضروري العناية بالالة الانسانية والمحافظة عليها في حالة جيدة، فانها تتضمن بالمثل من الناحية الاخرى انه لا يجب ان ينفق على هذا الغرض اكثر مما هو ضروري تماما للابقاء على الالة الانسانية صالحة للعمل

ضعف ونواقص المادية الميكانيكية

للمادية الميكانيكية نواحي ضعف خطيرة

١ــ انها لا تستطيع ان تتمسك بوجهة النظر المادية بشكل

---

(٣) روبرت اوين : نظرة جديدة للمجتمع .

متماسك حتى النهاية

فاذا كان العالم كالآلة فمن الذي صنعها ، من الذي حركها؟ لا بد بالضرورة ان يوجد في كل مذهب مادي ميكانيكي « كائن اسمى » خارج العالم المادي — حتى ولو لم يعد يتدخل بشكل مستمر في العالم ويسير هو الامور بل لـم يقم الا بالدفعـة الاولى ثم اخذ يراقب ما يحدث

فقد صاغ كل الماديين الميكانيكيين تقريبا — مثل فولتير وتوم بين — هذا « الكائن الاسمى » ،لكن هذا يفتح الباب امـام المثالية .

٢— ترى المادية الميكانيكية التغير في كل مكان ، الا انهـا بسبب محاولتها رد كل الظواهر الى نفس النظـام من الفعـل المتبادل الميكانيكي ، لا ترى هذا التغير الا كتكرار ابدي لنفس النوع من العمليات الميكانيكية ، كدورة ابدية للتغيرات نفسها .

ولايمكن فصل هذه النقيصة عن النظر للعالم كآلة ، فكما انه لا بد ان يوجد من يدفع الالة ، فانها لا يمكن ان تصنع الا مـا صنعت لاجله ، انها لا تستطيع ان تغير نفسها، او ان تنتج شيئا جديدا جذريا ، ومن هنا تنهار النظرية الميكانيكية دائما حين تطرح مسألة ظهور **كيف جديد** ، انها ترى التغير في كل مكان — لكنها لا ترى شيئا **جديدا**، لا ترى **تطورا**

فلا يمكن في الواقع الهبوط بعمليات الطبيعـة المختلفة — العمليات الكيميائية وعمليات المادة الحية — الى نفس النـوع من الفعل المتبادل الميكانيكي للجزئيات المادية .

فالتفاعلات الكيميائية تختلف عن الافعال المتبادلة الميكانيكية بقدر ما تتضمن التغيرات التي تحدث نتيجة للتفاعل الكيميائـي تغييرا في الكيف

فمثلا اذا نظرنا الـى الفعل المتبـادل الميكانيكـي لجزيئين يصطدمان فلا اهمية لخصائصهما الكيفية ، وستبدو النتيجـة

بشكل تغير في كم واتجاه حركة كل منهما ، ولكن اذا تقابلت مادتان كيميائيتان واتحدتا كيميائيا فستنتج مادة جديدة مختلفة كيفيا عن كل منهما ،وبالمثل ليست الحرارة من وجهة نظر الميكانيكا الا زيادة في كمية حركة جزيئات المادة؛ لكن استخدام الحرارة في الكيمياء ينتج تغيرات كيفية

كما ان عمليات الطبيعة ليست تكرارا لنفس الدورة من الافعال المتبادلة الميكانيكية ، فهناك في الطبيعة تطور وارتقاء دائم، ينتج اشكالا جديدة على الدوام من وجود المادة او — وهذا نفس الشيء — من حركتها ، ومن هنا فكلما اتسع وتماسك تطبيق المفاهيم الميكانيكية في تفسير الطبيعة انكشفت بوضوح اكثر نقيصتها الجوهرية

٣— وبدرجة اكبر لا تستطيع المادية الميكانيكية تفسير التطور الاجتماعي .

فالمادية الميكانيكية تعبر عن المفهوم البورجوازي الراديكالي للمجتمع باعتباره مكونا من ذرات اجتماعية تتفاعل فيما بينها، ولا يمكن اكتشاف الاسباب الاقتصادية والاجتماعية الحقة لتطور المجتمع من هذه الزاوية ، هكذا تبدو التغيرات الاجتماعية العظمى وكأنها تصدر عن اسباب عرضية تماما ويبدو النشاط الانساني ذاته كنتيجة ميكانيكية لاسباب خارجية، او يعامل على انه شيء فجائي لا سبب له ، وهنا تنحدر المادية الميكانيكية الى المثالية

وباختصار لا تستطيع المادية الميكانيكية ان تقدم تفسيرا لنشاط الناس الاجتماعي

المادية الميكانيكية والاشتراكية الخيالية

تعالج الفكرة الميكانيكية الناس بطريقة مجردة؛ فتنظر الى كل انسان كذرة اجتماعية تضفي عليها الطبيعة خصائص كامنة

معينة ؛ وواجبات وحقوق معينة

وقد وجد هذا تعبيرا عنه في المفهوم البورجوازي « لحقوق الانسان » وشعار البورجوازية الثوري «كل الناس متساوون»

لكننا لايمكننا ان نستخلص مفهوم حقوق الانسانمن الطبيعة المجردة للانسان، وانما تحددها المرحلة الاجتماعية التييعيش الناس في ظلها؛ وليس الناس على ما هم عليه « بالطبيعة » بل هم يصبحون ما هم عليه ويتغيرون نتيجة لنشاطهم الاجتماعي وليس كل الناس متساوون « بالطبيعة » ، ففي وجه المفهوم البرجوازي عن المساواة المجردة ، تلك المساواة التي تنتهي الى مجرد مساواة شكلية في حقوق المواطنين؛ مساواة امام القانون ، يعلن ماركس وانجلز ان :

« المحتوى الحقيقي لمطلب البروليتاريا من اجل المساواة هو المطالبة بالغاء الطبقات، وكل مطالبة بالمساواة تتعدى ذلك تتحول بالضرورة الى حماقة » (٤)

وقد حاول الميكانيكيون التقدميون — وفقا لفكرتهم المجردة الميكانيكية عن الناس كذرات اجتماعية — ان يحددوا بطريقة مجردة اي اشكال المجتمع افضل للبشرية — ايها يوائم بطريقة افضل الطبيعة الانسانية كما تصوروها

وقد تبنى المفكرون الاشتراكيون الذين سبقوا ماركس مباشرة ، الاشتراكيون الخياليون ، هذه الطريقة في التفكير، فقد كان الاشتراكيون الخياليون ماديين ميكانيكيين ، لقد قدموا الاشتراكية كمجتمع مثالي ، ولم يروها امرا يحتمه تطور تناقضات الرأسمالية — فقد كان يمكن تقديمها وتحقيقها في اي وقت ، لو ان الناس كان لديهم الذكاء اللازم لذلك . وهم لم يروها شيئا يجب انينتزع خلال نضال الطبقة العاملة ضد

---

(٤) انجلز انتي دوهرينغ الجزء الاول الفصل العاشر .

الراسمالية ـــ فمن الممكن تحقيقها اذا اقتنع الجميع بانها عادلة ومتلائمة تماما مع احتياجات الطبيعة الانسانية « ولهذا السبب دعا روبرت اوين كلا من اسقف كنتربري والملكة فيكتوريا الى تأييد برنامجه الاشتراكي »

وبالاضافة الى ذلك ظن الماديون الميكانيكيون ـــ وينطبق هذا على الاشتراكيين الخياليين قبل غيرهم ـــ ان بيئة الانسان وتربيته هي التي تحدد ماهيته ـــ شخصيته ونشاطه ، ومن هنا اعلنوا انه يكفي لكي نجعل الناس افضل واسعد واكثر معقولية ان نضعهم في ظروف افضل وان نقدم لهم تربية افضل

لكن ماركس يجيب على هذا بقوله

« ان المذهب المادي الذي يقول ان الناس نتاج ظروفهم وتربيتهم ، وبالتالي ان الظروف المتغيرة والتربية المتغيرة ستخلق اناسا متغيرين ، ان هذا المذهب ينسى ان الناس بالتحديد هم الذين يغيرون الظروف ، وان الذي يعلم يجب ان يتعلم هو ايضا » (٥)

فاذا كان الناس مجرد نتاج للظروف فانهم يكونون تحت رحمة هذه الظروف ، لكن الامر على العكس ، فالناس يستطيعون ان يغيروا ظروفهم ، والناس ذاتهم لا يتغيرون كنتيجة ميكانيكية لظروفهم المتغيرة ، بل يتغيرون في مجرى نشاطهم لتغيير ظروفهم ، وكنتيجة لهذا النشاط .

فما هي اذن الاسباب المادية الحقيقية التي تعمل في المجتمع الانساني ، والتي تولد نشاطا جديدا ، وافكارا جديدة ، ومن ثم تولد ظروفا متغيرة واناسا متغيرين ؟

لا تستطيع المادية الميكانيكية ان تجيب على هذا السؤال

---

(٥) ماركس : قضايا عن فيورباخ رقم ٣

ولا تستطيع ان تفسر قوانين التطور الاجتماعي ولا ان توضح كيف نغير المجتمع

وعلى الرغم من انها كانت مذهبا تقدميا ثوريا في عصرها ، فانها لا تستطيع ان تكون مرشدا لنضال الطبقة العاملة في سعيها لتغيير المجتمع

الفصل الرابع

من المادية الميكانيكية الى المادية الجدلية

الاشياء والعلميات

كي نستطيع ان نكتشف الطرق للتغلب علـــى نواقـــص المعالجة الميكانيكيـــة يمكننا اولا ان ندرس بعض الافتراضات الموغلة في الجمود العقائدي التي تقدمهـــا المادية الميكانيكية. وليس لاي من هذه الافتراضات الميكانيكية مبررا او مسوغا؛ فاذا ما عرضناها لضوء النهار واشرنـــا الى ما هـــو خاطىء فيهـــا استطعنا ان نـــرى كيف نتجـــاوز حدود الماديـــة الميكانيكيـــة

١ ـــ ترى الميكانيكية ان لكل التغيرات في اساسها اشياء ثابتة ودائمة ذات خواص محددة ثابتة

وهكذا يتكون العالم بالنسبة للميكانيكا من جزيئات ماديـــة لا تقبل الانقسام ولا التحطيم ، تكشف في تفاعلهـــا عـــن صفات مثل الوضع والكتلة والسرعة

وطبقا للميكانيكية فانك اذا ما حددت وضع وكتلة وسرعـــة كل جزيء في لحظة معينة من الزمان تكـــون قد قلت كـــل

ما يمكن ان يقال عن العالم في ذلك الزمان ؛ وتستطيع بتطبيق قوانين الميكانيكا ان تتنبأ بكل ما سيحدث فيما بعد

هذا هو الافتراض العقائدي الجامد الاول للميكانيكية لكننا لا بد ان ننبذه لان العالم لا يتكون من **اشياء ، بل من عمليات** ؛ تنشأ خلالها الاشياء وتنتهي

يقول انجلز لا يمكن فهم العالم على انه مركب من اشياء جاهزة ، بل على انه مركب من عمليات تمر خلالها الاشياء التي تبدو في الظاهر ثابتة ، وكذلك صورها الذهنية في رؤوسنا ، في تغير لا ينقطع من الوجود والفناء » (١)

وهذا في الواقع ما تعلمنا اياه اخر تطورات العلم .وهكذا فالذرة التي كان يظن ذات يوم انها ابدية لا تقبل الانقسام قد حللت الى اليكترونات وبروتونات ونيوترونات ، وليست هذه ذاتها « جزئيات اساسية » بأي معنى مطلق ، اي انها ليست ابدية لا تقبل الانقسام مثليا مثل الذرة ؛ فالعلم يرينا اكثر واكثر انها هي ايضا توجد وتفنى وتمر بعديد من التحولات .

فما هو اساسي ليس « الشيء » ، ليس « الجزيء » بل **عمليات** الطبيعة التي لا تنتهي حيث تمر **الاشياء** في « تغير لا ينقطع من الوجود والفناء » . واكثر من هذا **فعمليات الطبيعة لا نهائية** : فستكون هناك دائما جوانب جديدة علينا الكشف عنها ولا يمكن ردها الى مكونات **نهائية** . يقول لينين الالكترونات لا تستهلك مثلها مثل الذرة فالطبيعة لا نهائية » (٢)

وبالمثل فعند دراسة المجتمع لا نستطيع ان نهم مجتمعا معينا كنوع من المؤسسات ينظم الرجال والنساء داخلها

---

(١) انجلز : لودفيج فيورباخ الفصل الرابع .

(٢) لينين : المادية والنقد التجريبي . الفصل الخامس — قسم ٢

وخلالها ، بل يجب ان ندرس العمليات الاجتماعية التي تحدث، والتي تتحـــول المؤسسات والناس في مجراها

المادة والحركة

٢ ـــ والافتراض العقائدي الجامـــد الثاني للميكانيكية هـــو ان التغير لا يمكن أن يحدث ابدا الا بفعل سبب خارجي

فكما لا يتحرك جزء من اجزاء الالـــة الا بفعل جـــزء اخـــر عليه وتحريكه له ، فكذلك تنظـــر الميكانيكيـــة الى المادة على انها ساكنة ـــ اي دون حركة او بالاحرى دون حركة ذاتيـــة. فلا شيء يتحرك ـــ بالنسبة للميكانيكية الا اذا دفعه او جره شيء اخـــر ، لا شيء يتحـــرك الا اذا تدخل شيء اخـــر

فلا عجب ، والميكانيكيون ينظرون الى المادة بهذه الطريقة ، أن يؤمنوا بكائن أسمى يعطي هو « الدفعة الاولى »

لكننا لا بد ان ننبذ هذه النظرية الميتة التي لا حياة فيها عن المـــادة

ان هذه النظرية تفصل المادة عن الحركة انها تنظر الـــى المادة كمجرد كتلة ميتة ، لا بد من فرض الحركة عليها مـــن الخارج ، لكن الامر على العكس ، فلن نستطيـــع أن نفصـــل المادة عن الحركة ، فالحركة كما يقول انجلز هي أسلوب وجود المـــادة

«الحركة هي اسلوب وجود المادة،ولا توجد في اي مكان ـــ ولا يمكن ان توجد ـــ مادة دون حركة ـــ الحركة في الفضاء الكوني، الحركة الميكانيكية للكتل الاصغر في مختلف الاجرام السماوية ، حركة الجزيئات في شكل الحرارة او التيـــارات الكهربيـــة او المغناطيسية ، وفي التركيـــب او التحلل الكيماوي والحيـــاة العضوية ـــ ففي كل لحظة معينة تكون كل ذرة مفردة من المادة

في العالم في شكل او اخر من أشكال الحركة او في عدد منها في نفس الوقت ، وكل سكون ، كلتوازن ، هو نسبي فقط وليس له معنى الا بالنسبة لشكل محدد او آخر من أشكال الحركة ، فقد يكون جسم ما مثلا في حالة توازن ميكانيكي على الارض ، قد يكون في حالة سكون ميكانيكي ، لكن هذا لا يمنعه بأي حال من الاشتراك في حركة الارض وفي حركة المجموعة الشمسية بأكملها ، تماما كما لا يمنع اجزاءه شديدة الدقة من تحتيق الذبذبات التي تحددها درجة حرارته ، ولا يمنع ذراته من المرور بعملية كيميائية ، فالمادة دون الحركة امر لا يمكن التفكير فيه تماما كالحركة دون المادة » (٣)

ان طبيعة المادة ابعد ما تكون عن الموت والسكون؛ انها بطبيعتها ذاتها في عملية من التغير المستمر ، من الحركة وحالما ندرك ذلك فستنتهي الحاجة الى «الدفعةالاولى »، فليس للحركة ــ كما ليس للمادة ــ بداية . ان مفهوم عدم امكان الفصل بين المادة وبين الحركة ، ان فهم الحركة « كأسلوب لوجود المادة » يزودنا بطريقة للاجابة على عديد من الاسئلة المحيرة التي تلح عادة على اذهان الناس حين يفكرون في المادية وتقودهم الى هجر المادية ؛ والى الهرولة الى الكهنة باحثين عن تفسير للحقيقة « النهائية » لهذا الوجود

هل خلق كائن اسمى هذا العالم ؟ ما هو اصل المادة ؟ ما هو اصل الحركة ؟ ما هي البداية الاولى لكل شيء ؟ ما هو السبب الاول ؟ هذه انواع الاسئلة التي تحير الناس

ومن الممكن ان نجيب على هذه الاسئلة

كلا ؛ لم يخلق كائن اسمى العالم ، فلكل تنظيم خاص للمادة ، لكل عملية خاصة للمادة في حركتها ، مصدر وبداية ــ لقد تولدت من تنظيم سابق للمادة،من عملية سابقة

(٣) انجلز ــ انتى ــ دوهرنج ــ الجزء الاول ــ الفصل السادس

للمادة في حركتها لكن المادة في حركتها ليس لها اصـــل وليست لها بداية

ويعلمنا العلم اننا لا نستطيع الفصل بين المادة والحركـة، فمهما بدت بعض الاشياء ساكنة فثمة حركة مستمرة داخلها، فالذرة مثلا لا تحافظ على وجودهـا الا عن طريق الحركـة المستمرة لاجزائها

ومن هنا فعلينا حين ندرس اسباب التغير الا نبحث فقـط عن الاسباب الخارجية له ، بل علينـا ان نبحث عن مصـدر التغير ـ قبل كل شيء ـ داخل العملية ذاتهـا في حركتهـا الذاتية ، في الدفعات الداخلية للتطور التي تحويها الاشـياء ذاتها

وهكذا فحين نبحث عن اسباب التطور الاجتماعي وقوانينه، يجب الا نـرى التغيرات الاجتماعية نتاجا لاعمـال رجـال عظام فرضوا افكارهم وارادتهم السامية على كتلة المجتمـع الساكنة ـ ولا علـى انها نتاج للصـدف والعوامل الخارجية ـ بل على انها نتاج تطـور القـوى الداخلية للمجتمـع ذاته ، ويعني هذا تطور قـوى المجتمع الانتاجية

وهكذا فنحن نـرى الاشتراكية ـ على عكس الخياليين ـ نتيجـة لتطور المجتمـع الراسمالي ذاته ، وليس لاحـلام المصلحين ـ فهذا المجتمع يحـوي داخله اسبابا لا بـد حتما ان تقضي عليه، وان تقود الى الثورة الاشتراكية

اشكال حركة المادة

٣ ـ والافتراض العقائـدي الجامد الثالث للميكانيكيـة هو ان الحركة الميكانيكية للجزيئات ، اي التغير البسيط فـي مكان الجزيئات كنتيجـة لفعل القـوى الخارجية عليهـا

هي الشكل النهائي الاساسي لحركة المادة ، وان كل التغيرات ،وكل الاحداث ايا كانت ، يمكن الهبوط بها وتفسيرها بمثل هذه الحركة الميكانيكية للجزيئات

وهكذا تنتهي كل حركة المادةالى حركة ميكانيكية بسيطة، وكل الخصائص المتغيرة التي نراها في المادة ليست سوى مظاهر للحركة الميكانيكية الاساسية للمادة.ومهما تنوعت المظاهر ، مهما بدا أن اشكالا جديدة ارقى للتطور قد وجدت ، فان من الممكن ردها جميعا الى نفس الشيء — التكرار الابدي للفعل المتبادل الميكانيكي لاجزاء المادة المنفصلة

ومن الصعب ان نجد اي تبرير لهذا الافتراض ، اذ توجد في العالم المادي انواع مختلفة من العمليات ، تؤلف كلها اشكالا مختلفة لحركة المادة ، لكن لا يمكن ردها جميعا الى نفس الشكل من اشكال الحركة (الميكانيكية)

يقول انجلز

« تشمل الحركة بمعناها العام ، تلك الحركة التي ندركها كأسلوب وجود المادة والخصيصة الكامنة لها ، كل التغيرات والعمليات التي تحدث في الوجود ، من مجرد التغير في المكان حتى التفكير ولا بد ان يبدأ البحث عن طبيعة الحركة بالطبع من ادنى اشكالها وابسطها ، وان نتعلم ادراك هذه الاشكال قبل ان نستطيع انجاز اي شيء في مجال تفسير الاشكال الارقى والاكثر تعقدا » (٤) —

وابسط اشكال الحركة هو التغير البسيط في اماكن الاجسام ذلك التغير الذي تدرس الميكانيكا قوانينه ، لكن هذا لا يعني انه يمكن رد كل الحركات الى ابسط اشكالها

---

(٤) انجلز جدليات الطبيعة — الفصل الثالث

هذه ،بل يعني بالاحـــرى ان علينا ان ندرس كيف تنشأ وتتطور كل الاشكال الارقى للحركة من ابسط اشكالها ـــ « من مجـــرد التغير في المكان الى التفكير ».

فكل شكل من اشكال الحركة يتحـــول الى شكل اخـــــر وينشأ منه ، ولا يمكن أن يوجد الشكل الارقى والاكثر تعقدا دون وجود الشكل الادنى والابسط ، لكن هذا لا يعني انـــه مـــن الممكن رده الى هذا الشكـــل ، انـــه لا ينفصل عن الشكـــل الابسط لكن طبيعته لا تنتهي عند ذلك، فالتفكيـــر الذي يجري في ذهننا مثلا لا يمكن فصله عن الحركة الكيميائية والكهربائية الخ التي تحـــدث في خلايـــا الذهن الرماديـــة ؛ ولكن لا يمكن رده الى هذه الحركة ،ولا تنتهي طبيعته عنـــد هـــذا الحـــد

بيد انه لا يجب الخلط بين وجهة النظـــر **المادية** التي تنبـــذ الفكرة الميكانيكـــة القائلة ان كـــل اشكال حركة المادة يمكـــن ان ترد الى حركة ميكانيكيـــة وبين الفكرة **المثاليـــة** القائلة انه لا يمكن تفسير الاشكال الارقى للحركـــة باعتبارها ناشـــــئة عن الاشكال الادنى، فالمثاليون يزعـــمون مثلا ان الحياة كشكل من اشكال حركة المادة لايمكن ان تنشأ عن اي عمليات تميـــز المادة غير الحيـــة ، فالحياة لا يمكـــن ان تنشأ في نظرهم الا عن طريق دخـــول شيء غامض من الخـــارج الى التكـــوين المادي ـــ « قوة حيوية »، لكن قولنا انـــه لا يمكـــن رد شكـــل الحركة الارقى الى الشكل الادنى لا يعني انـــه غير مستمـــد من **الشكـــل الادنى** في مجرى تطور هذا الشكـــل الاخيـــر. وهكذا سيؤكد الماديون دائما ان الحيـــاة مثـــلا تظهـــر فـــي مرحلة معينة من مراحل تطور الاشكال الاكثـــر تعقدا مـــــن اشكال المادة غير الحية ، وتنشأ كنتيجـــة لهذا التطور وليس

كنتيجـــة لادخال « قوة حيوية » غامضة على المادة غير الحية، وتظل مهمة العلم في هذا المجال هي ان يوضح بالتجربة كيـف حـدث التحـول من المادة غير الحية الى المادة الحية

وهكذا يجب ان تنبذ الافكار الميكانيكية من رد كـل حركـة المادة الى الحركة الميكانيكية البسيطة ، اننا نحتاج بالاحـرى الى دراسة كل اشكال حركـة المادة غير المحـدودة، في تحولها الى بعضها البعض، واذ ينشأ الواحـد منهـا عـن الاخـر ، والمعقـد عـن البسيط ، والارقى عـن الادنى

وبالنسبة للمجتمع لم يحاول احـد حتى الان ان يوضـح كيف يمكن تفسير التغيرات الاجتماعية عن طريق الافعال المتبادلة الميكانيكيـة للذرات التي تكـون اجسام مختلف اعضـاء المجتمع ـ رغم ان هذا يمثل التتويج المنطقي للفكر الميكانيكي. لكن اقرب شيء لذلـك هي المحاولة التي قامت بها النظريـة الميكانيكيـة المسماة « بالحتمية الاقتصادية ». ووفقا لهـذه النظرية يمكـن تفسـير حركة المجتمـع كلهـا بالتغيرات الاقتصادية التي تحـدث في المجتمع ، وحين نصف العمليـة الاقتصادية نكون قد استنفدنا كل العوامـل المحددة للتغير الاجتماعي وهذا مثل للفكر الميكانيكي الذي ينتهي بالحركـة المعقدة الى شكـل واحـد بسيط ـ ينتهي بعملية التغيـر الاجتماعي التي تشمل التطورات السياسـية والثقافيـة والايديولوجيـة الى مجـرد عملية اقتصادية ، لكننا لا يمكـن ان نؤدي مهمـة تفسير التطور الاجتماعي بمحاولة الهبـوط بالتطور كله الى عملية اقتصادية ، بالاحـرى ان مهمتنا هـي ان نوضح كيف تقـوم على اساس العملية الاقتصادية كـل اشكال النشاط الاجتماعي وتلعب دورها في حركة المجتمـع المعقـدة

٤ ــ واخر الافتراضات الميكانيكية العقائدية الجامدة هي ان لكل الاشياء والجزيئات ــ التي يقال ان افعالها المتبادلة هي التي تصنع مجموع احداث الوجود ــ طبيعتها الثابتة المستقلة تماما عن كل شيء اخر ؛ وبعبارة اخرى يمكن النظر الى كل شيء منفصلا عن الاشياء الاخرى كوحدة مستقلة

ومن هذا الافتراض ينتج ان كل علاقة بين الاشياء هي مجرد علاقة خارجية ومعنى هذا ان الاشياء تدخل في علاقات مختلفة بين بعضها البعض ، لكن هذه العلاقات علاقات عرضية ولا تغير من طبيعة الاشياء التي تدخل في هذه العلاقة .

واذ تنظر الميكانيكية الى كل شيء كوحدة منفصلة تدخل في علاقات خارجية مع غيرها من الاشياء؛ فانها بعد هذا تعتبر الكل مجرد مجموع لاجزائه المنفصلة ، وطبقا لهذه الفكرة تتحدد خصائص توانين تطور الكل وفقا لخصائص كل اجزائه فحسب

وليس هناك افتراض صحيح من بين هذه الافتراضات فلا يوجد شيء، ولا يمكن أن يوجد شيء ، في عزلة رائعة منفصولا عن ظروف وجوده ومستقلا عن علاقاته بالاشياء الاخرى ، فالاشياء تولد وتوجد وتكف عن الوجود لا في استقلال سائر الاشياء ، بل في علاقة مع سائر الاشياء وطبيعة الشيء ذاتها تتعدل وتتحول نتيجة علاقاته بالاشياء الاخرى ، فحين تدخل الاشياء في علاقة تجعلها تصبح جزءا من كل فان الكل لا يمكن النظر اليه باعتباره مجرد المجموع الكلي لهذه الاجزاء ، صحيح ان الكل ليس شيئا بعيدا ومستقلا عن اجزائه، لكن العلاقات المتبادلة

التي تدخل فيهـــا الاشياء التي تكـــون الكل تعـــدل مـــن خصائصها بحيث نستطيع ان نقـــول ان الجـــزء يحدد الكل، ونستطيع بنفس الدرجـــة ان نقـــول ان الكـــل يحدد الجزء.

ومرة اخرى يوضح تطور العلم ذاته انه لا يمكـــن قبـــول الافتراضات الميكانيكيـــة القديمـــة ، فليس لهذه الافتراضات فعاليـــة الا في نطاق محدود جـــدا هـــو دراسة الافعـــال الميكانيكية المتبادلة للجزيئات المنفصلـــة وقد مزق تطـــور الدراســـة في ميـــدان الكهربية ـــ المغناطيسية هـــذه الافتراضات في علم الفيزياء كمـــا لا يمكـــن بدرجة اكبـــر قبولها في علم البيولوجيا، في دراسة المادة الحية ، وبدرجة اكبر في دراسة النـــاس والمجتمـــع اذ لا نستطيـــع ان نفهـــم العمليات الاجتماعية ـــ كمـــا يحاول الميكانيكيـــون دائمـــا ان يفعلوا ـــ باعتبارها مجـــرد نتاج لمجموعـــة مـــن الخصائص « للطبيعة الانسانية » ، لان « الطبيعة الانسانية » تحددهـــا دائما التغيرات في علاقات الناس الاجتماعية ، وتتغير وفقـــا لها في مختلف النواحي

تصحيح المادية الميكانيكيـــة

حين نكشف افتراضات المادية الميكانيكية هذه ونرفضهـــا فاننا نرى على الفور حاجتنا الى مذهب مادي من نوع مختلف جديد ـــ مادية تتغلب على ضعف وضيق وجمـــود الافتراضات الميكانيكية

وتلك هي المادية الجدلية

ولا تفهم المادية الجدلية العالم على انه مركب من اشـــياء جاهزة بل مركب من عمليات تمر خلالهـــا الاشياء في تغير لا ينقطع من الوجـــود والفناء

وتعتبر المادية الجدلية ان المادة دائمـــا في حركـــة ، وان

الحركة هي اسلوب وجود والمادة ، بحيث لا يمكن ان تجد مادة دون حركة تماما كما لا توجد حركة دون مادة ، ولسنا في حاجة الى قوة خارجية تفرض الحركة على المادة، لكن من الضروري في المقام الاول ان نبحث عن الدوافع الداخلية للتطور عن الحركة الذاتية ، الكامنة في كل العمليات

وتفهم المادية الجدلية حركة المادة باعتبارها شاملة لكل التغيرات والعمليات في الوجود ، من مجرد التغير في المكان حتى التفكير ، فهي من ثم تدرك التعدد الذي لا ينتهي لاشكال حركة المادة ، وتحول شكل من اشكال الحركة الى اشكال اخرى ،وتطور اشكال حركة المادة من الشكل البسيط الى المعقد ، ومن الادنى الى الاعلى

وتعتبر المادية الجدلية انه في العمليات متعددة الجوانب التي تحدث في الكون تولد اشياء وتتغير وتكف عن الوجود، لا كوحدات مفردة منفصلة ، وانما في علاقة وتداخل اساسي، بحيث لا يمكن فهم اي منها بذاته منفصلا وانما في علاقته وتداخلاته

وهكذا يقوم في الماديَة الجدلية مفهوم مادي اكثر غنى في محتواه واكثر شمولا من المادية الميكانيكية السابقة

القسم الثاني

الجدل

المفهوم الجدلي للتطور

الجدل والميتافيزيقيا

التغير والعلاقة المتبادلة

قوانين التطور

التناقض

التطور والنفي

نظرة علمية الى العالم

الفصل الخامس

المفهوم الجدلي للتطور

فكرة التطور

راينا أن للتصحيحات التي قدمتها المادية الجدلية لوجهة النظر الميكانيكية تبريرا كاملا وأساسا كاملا لها في تقدم العلم ، فالحق أن تقدم العلم ذاته قد مزق كل مفهوم الكون الذي كان يعتنقه الماديون الميكانيكيون الاول

فالكون — وفقا لهذا المفهوم — يظل ثابتا على الدوام ، انه آلة هائلة تقوم دائما بنفس الشيء ، وتخلق دائما نفس المنتجات ، وتمضي في دورة دائمة لنفس العمليات

وهكذا كانوا يعتقدون أن النجوم والمجموعة الشمسية قد ظلت ثابتة وان الارض بكل قاراتها ومحيطاتها وكل النباتات والحيوانات التي تقطنها قد ظلت على ما هي عليه دائما

لكن هذا المفهوم ترك مكانه لمفهوم التطور ، ذلك المفهوم الذي غزا كل مجالات البحث دون استثناء ، بيد أن العلم لا يتقدم في عزلة عن المجتمع ككل ، ولم يكن الاستخدام الواسع لفكرة التطور راجعا فقط الى ثبوت صحته في النظرية العلمية بل كان راجعا كذلك لملاءمته لقوى الرأسمالية الصناعية الجديدة الصاعدة التي كانت سيدة العلم .

لا تستطيع البورجوازية أن تعيش دون ثورة في أدوات الانتاج وبالتالي في علاقات الانتاج ، ومعها كل العلاقات الاجتماعية وعلى العكس من ذلك كانت المحافظة على اساليب الانتاج القديمة في شكل لا يتغير هي الشرط الاول لوجود الطبقات الصناعية السابقة فالثورة الدائمة في الانتاج ، والاضطراب الذي لا يتوقف في الظروف الاجتماعية والحيرة والقلق الدائمين ، كل ذلك يميز العصر البورجوازي عن العصور التي سبقته » (١)

لقد اعتبر الرأسماليون الصناعيون أنفسهم حملة راية التقدم ولما كانوا يعتقدون أن التقدم هو قانون الرأسمالية فقد اعتبروه قانون الكون كله

وهكذا أمكن حدوث تقدم كبير في الصورة العلمية عن الكون؛ وبدأت تنمو صورة للكون لا باعتباره ثابتا لا يتغير وانما باعتباره في تطور مستمر الى الامام

فلم تكن النجوم موجودة دائما — بل تكونت من كتل الغاز المنتشرة

وبعد أن تكونت كل مجاميع النجوم فانها وكل ما تحويه من نجوم — تمر بعملية تطور ، مرحلة بعد مرحلة

ولبعض (النجوم) — مثل شمسنا — كواكب تابعة ، كالمجموعة الشمسية ، وهكذا ولدت الارض ، واذ برد سطحها تكونت مركبات كيميائية لا يمكن ان توجد في ظل درجات الحرارة العالية في النجوم

وهكذا بدأت المادة تكتسب خصائص جديدة لم تكن موجودة من قبل — خصائص المركبات الكيميائية

ثم تكونت من الارتباطات المعقدة لذرات الكربون مركبات عضوية ونشأت من المادة العضوية اجسام بدأت للمرة الاولى

---

(١) ماركس وانجلز — « بيان الحزب الشيوعي »

تكتسب خصائص الحياة خصائص المـــادة الحية ، ونشأت خصائص جديدة اخرى للمادة ــ خصائص المادة الحية

ومرت الكائنات الحية بتطور طويل ، وصل في النهاية الى الانسان ومع ظهور الانسان ولد المجتمع الانساني ، وبذلك نشأت عمليات أخرى جديدة وقوانين جديدة ــ قوانيـــن المجتمع وقوانين الفكر

فماذا سيأتي بعد ذلك ؟

لا يستطيع « العلم الرأسمالي » ان يذهب الى أبعد مـــن ذلك انه يتوقف هنا لان « العلم الرأسمالي » لا يستطيع ان يفكر في نهاية الرأسمالية لكن العلم الاشتراكي يوضـــح أن الانسان ذاته على وشك أن يفتتح مرحلة جديدة من التطور ــ المجتمع الشيوعي ــ وهي مرحلة ستضع كل العمليـــة الاجتماعية تحت توجيهه المخطط الواعي

وهذا كله هو التاريخ التطوري للوجود المادي

ويمكن ان يقال ــ فيما عدا النقطة الاخيرة ــ أن هذا كله معـــروف للجميـــع ، فالمفكـــرون البـــورجوازيون يعرفـــونه كالماركسيين وان كانوا كثيرا ما ينسونه لكن الماركســـية لا تقتصر على تأكيد حقيقة أن كل شيء في العالم يمر بعملية من التطور ، فما اكتشفته الماركسية هو كيف نفهم ونفسر هذا التطور بطريقة ماديـــة

وقد جاءت اكتشافات ماركس العلمية عن قوانين التطـــور بتطبيق مفاهيم المادية الجدلية وهـــذا هـــو السبب في ان الماركسية وحدها هي التي تستطيع أن تقدم تفسيرا علميـــا للتطور وان تشير الـــى طريق المستقبل

ولقد بين ماركس كيف نفهم التغير والتطور فـــي الطبيعـــة وفي المجتمع بطريقة مادية وكيف نصبح بالتالـــي ســـادة المستقبل .

المفهوم المثالي عن التغير والتطور

كيف حاول مفكرو البورجوازية ان يفسروا التغير الشامل والتطور الذي اكتشفوه ؟

لندرس اولا ما قاله عدد منهم طيلة فترة تزيد على القرن

قال هيجل ان كل عملية التطور التي تحدث في التاريخ ترجع الى تحقيق الفكرة المطلقة لذاتها في التاريخ وقال هربرت سبنسر ان كل تطور هو عملية زيادة «تكامل المادة»؛ وارجع هذا الى ما سماه « قوة لا يمكن فهمها ، كائنة في كل مكان » . وقال هنري برجسون ان كل شيء يمر بعملية تطور بفضل نشاط « قوة الحياة » وفي فترة حديثة نسبيا صاغت مدرسة فلسفية بريطانية عبارة « التطور المتبثق وأوضحت أنه في مجرى التطور تنبثق — على الدوام — خصائص جديدة للمادة ، الواحدة بعد الاخرى ، أما لماذا يحدث ذلك فهذا كما يقول البروفيسور صمويل الكسندر — احد قادة هذه المدرسة — أمر لا يمكن تفسيره وانما يجب قبوله « في ورع طبيعي » ، بينما يقول قائد آخر من قادتها — البروفيسور . لويد مورجان — لا بد أنها ترجع الى قوة كامنة تعمل في العالم هي ، في نظره ، مطابقة لله

وهكذا في كل حالة ، استحضرت بعض الخيالات ، بعض الاشياء التي لا يمكن تفسيرها ولا التنبؤ بها ، لتفسير التطور . فحين كان كل فلاسفة التطور البورجوازيين هؤلاء ينظرون الى المستقبل كانوا اما أن يقولوا — مثل هيجل — ان التطور قد انتهى الآن (فمن تعاليم هيجل ان الفكرة المطلقة قد تحققت تماما في الدولة البروسية التي كان هو احد موظفيها البارزين) واما ان يعتبروا المستقبل امرا لا يمكن تحديده وهم اليوم قد بدأوا يفقدون الامل كلية ، وينظرون الى كل شيء ، الماضي والحاضر والمستقبل ، كأشياء لا يمكن فهمها ، كنتاج قوة

لا يستطيع المرء أبدا ان يفهمها ، ولا أن يسيطر عليها

وثمة نقيصة ثانية في أفكار معظم مفكري البورجوازية عن التطور هي أنهم يعتبرون عملية التطور عملية هادئة مستمرة لا تنقطع ، فهم يرون أن عملية الانتقال من مرحلة تطورية الى مرحلة اخرى تحدث خلال سلسلة من التدرجات، دون نزاع او دون انقطاع للاستمرار

لكن الاستمرار ليس هو قانون التطور ـ بالعكس ففترات التطور الهادىء المستمر التدريجي تقطعها تغيرات فجائية ، فظهور المرحلة الجديدة للتطور ـ حين تنضج ظروفها يحدث عن طريق انقطاع الاستمرار عن طريق وثبة من مرحلة الى أخرى

وقد كان هيجل اول من اشار الى ذلك. فهو يلاحظ ان كل فترة انتقال

« تشبه حالة ميلاد الطفل ، فبعد فترة طويلة من التغذية في هدوء يختصر الاستمرار في النمو التدريجي في الحجم ، في التغير الكمي ، فجأة مع اول نفس يستنشقه ـ ان هناك انقطاع في العملية ، هناك تغير كيفي ؛ ويولد الطفل » (٢)

لكن ماركس وحده هو الذي اتبع بملاحظة هيجل العميقة هذه ، اما مفكرو البورجوازية بعده فعلى الرغم من أن أبحاث العلم والخبرة الشائعة ذاتها توضح تماما أن التطور لا يمكن أن يحدث دون انقطاع الاستمرار دون انتقال فجائي ، دون وثبة من حالة الى أخرى ، فانهم قد حاولوا في نظرياتهم العامة ان يجعلوا الاستمرار غير المنقطع قانون التطور

وقد سار هذا التحيز لخط التطور الهادىء جنبا الى جنب مع الايمان الليبرالي بأن المجتمع الرأسمالي سيتطور في هدوء ـ خلال التقدم البورجوازي المنتظم المتسع « من سبق

---

(٢) هيجل علم ظواهر العقل ـ المقدمة

الى سبق » كما عبر تنيسون ذات مرة ، ذلك انهم لو فكروا بطريقة اخرى في التطور عموما لكان معنى ذلك أن علينا ان نفكر بطريقة مختلفة في التطور الاجتماعي على وجه الخصوص

المفهوم المادي الجدلي عن التطور

اجابت المادية الجدلية عن مشكلة فهم وتفسير التطور بطريقة مادية ، اي« في انسجام مع الحقائق المدركة في علاقاتها الفعلية لا المتخيلة »

وتنظر المادية الجدلية الى الكون لا على انه ثابت لا يتغير بل على انه في عملية تطور مستمر ، وهي لا تنظر الى هذا التطور كعملية هادئة مستمرة لا تنقطع بل كعملية تعترض فيها مراحل التطور التدريجي انقطاعات في استمرارها بوثبات فجائية من حالة الى اخرى ، وهي تبحث عن تفسير حركة الكون هذه وقوتها المحركة لا بابتداع خيال مثالي ؛ وانما داخل العمليات المادية ذاتها — في التناقضات الداخلية والاتجاهات المتضادة المتنازعة ، التي تعمل في كل عمليات الطبيعة والمجتمع .

وستكون الافكار المادية الجدلية الرئيسية التي تطبق عند دراسة قوانين تطور العالم المادي الحقيقي بما في ذلك المجتمع موضوع الفصول التالية ، وهذه هي الطريقة التي يلخصها بها لينين

الفكرة الاساسية للمادية الجدلية هي

ادراك الاتجاهات المتضادة المتناقضة التي تنفي بعضها البعض في كل ظواهر وعمليات الطبيعة فهذا وحده يزودنا بمفتاح الحركة الذاتية لكل شيء موجود ، انه وحده الذي يزودنا بمفتاح الوثبات وانقطاع الاستمرار والتحول الى الضد، ودمار القديم وبزوغ الجديد

والجدلية بالمعنى الصحيح هي دراسة التناقض في جوهر الاشياء ذاتها

فالتطـــور هو صراع الاضداد (٣)

وهذا الفهم المادي للجدل هو مفتاح فهم قوى التطور فـــي العالم المادي ذاته دون اللجوء الى اسباب خارجية

وينبعث هذا الاكتشاف من كل تاريخ تقدم العلم والفلسفة.

لكنه ينبعث قبل كل شيء من بحث قوانين المجتمع ـــ هذا البحث الذي اصبح لازما بفضل تطور المجتمع ذاته ـــ ينبعث من اكتشاف تناقضات الرأسمالية التي تفسر قوى التطـــور الاجتماعي ، وبذلك توضح الطريق الى الامام من الرأسمالية الى الاشتراكية

وهذا هو السبب في أن مفكري البورجوازية لا يستطيعون ان يجيبوا على تفسير مشكلة قوى التطور المادية الحقيقية في الطبيعة والمجتمع ، فان الاجابة على هذا السؤال تعني ادانة النظام الرأسمالي ، وهم يواجهون هنا مأزقا ، والفلسفـــــة الثورية ، فلسفة طليعة الطبقة الثورية ـــ الطبقة العاملة ـــ هي وحدها التي تستطيع أن تفعل ذلك

وقد أوضح اكتشاف ماركس لقوانين الجدل المادية كيـف نفهم التطور الجدلي للطبيعة لكنه أوضح قبل كل شيء كيف نفهم التغير الاجتماعي وكيف نشن نضال الطبقة العاملـــة من اجل الاشتراكية

وقد حول هذا الاكتشاف الفلسفة الى فلسفة ثورية

لقد أبرز انتصار المادية علي المثالية بقضائه على نواقـص المادية الميكانيكية السابقة

وهو بالمثل كان يعني نهاية كل المذاهب » الفلسفية

لقد جعل الفلسفة سلاحا ثوريـــا للشعب العـــامل أداة ومنهجا لفهم العالم من أجل تغيره

---

(٣) لينين ـــ ملاحظات فلسفية .

الفصل السادس

الجدل والميتافيزيقا

الطريقة الميتافيزيقية في التفكير

رأينا كيف يتعارض التفسير المادي مع التفسير المثالي ، ثم رأينا كيف فسر الماديون فيما مضى الاشياء بطريقة ميكانيكية، وكيف أثبتت المادية الميكانيكية أنها غير كافية لتفسير عمليات التغير والتطور الحقيقي، فنحن في حاجة، كيما نفعل ذلك، الى المادية الجدلية ، في حاجة الى أن ندرس ونفهم الاشياء بطريقة جدليـة

والواقع أن المنهج الجدليليس سوى منهج دراسة وفهـم الاشياء في تغيرها وتطورها الحقيقي وهو بهذا الوصف يقف مقابلا **للميتافيزيقـا** .

ما هي الميتافيزيقا ؟ أو بدقة أكثـر ما هـي الطريقـة الميتافيزيقية في التفكير ، تلك الطريقة التي تعارضها الطريقة الجدلية في التفكير

الميتافيزيقي من التفكير وكأن الشيء الذي نجرده يمكن ان يوجد هو ـــ بمعنى ما ـــ « مجرد لانه يعمل بالمفاهيم العامة » ، ولا يمكنه الا أن يتجاهل قدرا كبيرا من التفاصيل الخاصة غيـر الضرورية ، فاذا قلنا مثلا ان « للانسان قدمين » فاننا نفكـر

في صفة الانسان ، باعتبار ان لـــه قدمين، مجردة عـــن خصائصه الاخرى مثل ان له رأسا وذراعين وما الى ذلـك فاننا نفكر في كل الناس عموما دون اعتبـار لفردية انـاس معينين لكن هناك تجريدا وتجريدا ، ويتألف التجريـــد الميتافيزيقي من التفكير وكأن الشيء الذي نجرده يمكن أن يوجد مجردا وفن التفكير السليم يتضمـــن تعلـم كيفية تجنـب التجريدات الميتافيزيقية

فلنفترض — مثلا — اننا نفكر في الانسان ، في الطبيعـة الانسانية » ان علينا ان نفكر في الطبيعة الانسانية بطريقة تجعلنـا نـدرك ان الانســان يعيشـ فـــي مجتمـع وأن طبيعته الانسانية لا يمكن ان تكون مستقلة عن حياته في المجتمع ولكنها تتطور وتتغير مع تطـور المجتمـع وحينئذ نشكل افكارا عـن الطبيعـة الانسانيـة تتفق مع الظـروف الواقعية لوجود الانسان ومـع تغيرها وتطورهـا ، بيد ان الناس كثيرا ما يفكرون في « الطبيعة الانسانية » بطريقـة مختلفة تماما ، كأنما يوجد شيء اسمه « الطبيعة الانسانية » يظهر مستقلا تماما عن ظروف الوجود الانساني الفعلية شيء كان دائما وفي كل مكان على ما هو عليه والتفكيـــر بهذه الطريقة يعني أننا نفكر بطريقة مجردة مضللة ، ومثل هذه الطريقة المجردة المضللة في التفكير هـي بالدقـة ما نسميه الميتافيزيقا »

فمفهوم الطبيعة الانسانية » الثابتة غير المتغيرة مثـل للتجريد الميتافيزيقي للطريقة الميتافيزيقية في التفكير

فالميتافيزيقي لا يفكر في الناس الحقيقيين بل في « الانسان» المجرد

وهكذا فالميتافيزيقا أو الطريقة الميتافيزيقية في التفكير هي طريقة تفكر في الاشياء (١) مجردة عن ظروف (٢) مجردة

عن تغيرها وتطورها أنها تفكر في الاشياء (١ منفصلة عن بعضها البعض ، متجاهلة علاقاتها المتبادلة و (٢) ثابتة ومتجمدة متجاهلة تغيرها وتطورها

وقد قدمنا بالفعل مثلا للميتافيزيقا ، وليس من الصعب أن نجد العديد من الامثلة فالواقع أن طريقة التفكير الميتافيزيقية واسعة الانتشار وقد اصبحت جزءا لا يتجزأ من الايديولوجية البورجوازية الجارية بحيث لا يكاد يوجد مقال في صحيفة ، أو مناقشة تليفزيونية ، أو كتاب يضعه أستاذ مثقف ، لا نجد فيه أمثلة للزيف الميتافيزيقي

فلقد قيل وكتب — مثلا — الكثير عن الديمقراطية ، لكن المتحدثين والكتاب يشيرون عادة الى ديمقراطية خالصة او مطلقة يحاولون تعريفها مجردة عن التطور الفعلي للمجتمع وللطبقات ولصراع الطبقات ، لكن مثل هذه الديمقراطية الخالصة لا يمكن أن توجد انها تجريد ميتافيزيقي فاذا أردنا أن نفهم الديمقراطية فعلينا دائما أن نسأل الديمقراطية لمن للمستغلين أم للمستغلين ؟ وعلينا أن نفهم أنه ما دامت الديمقراطية شكلا للحكومة فليست هناك ديمقراطية غير مرتبطة بحكم طبقة معينة وأن الديمقراطية التي ستقام حين تكون الطبقة العاملة هي الطبقة الحاكمة ستكون شكلا من الديمقراطية أرقى من الديمقراطية الرأسمالية ، تماما كما كانت الديمقراطية الرأسمالية شكلا أرقى مثلا من ديمقراطية ملاك العبيد في اليونان القديمة ، وبعبارة أخرى علينا الا نحاول التفكير في الديمقراطية مجردة عن العلاقات الاجتماعية الحقيقية ، وعن التغير والتطور الحقيقي في المجتمع

وفي كثير من المدارس البريطانية كان الاطفال يخضعون بانتظام حتى وقت قريب « لاختبارات الذكاء » ، وكان يقال ان كل طفل يمتلك كمية محددة من « الذكاء » يمكن تقديرها دون

اعتبار للظروف الواقعية لوجود الطفل وتحدد قدراته طيلة حياته دون نظر للتغير والتطور الذي قد يصادفه ، وهذا مثل آخر للميتافيزيقيا ، وكان المفهوم الميتافيزيقي عن « الذكاء » يستخدم في هذه الحالة كمبرر لانكار فرص التعليم على غالبية الاطفال على أساس أن ذكاءهم منخفض بحيث لا يسمح لهم بالاستفادة من هذه الفرص

والميتافيزيقيا عموما طريقة للتفكير تحاول أن تثبّت طبيعة وخصائص وامكانيات كل شيء تدرسه مرة والى الابد ، وهي بالتالي تفترض مقدما أن لكل شيء طبيعة ثابتة وخصائص ثابتة

انها تفكر بعبارات من « الاشياء » لا من العمليات » ، انها تحاول ان تلخص كل شيء في صيغة تقول ان العالم كله ، أو أي جزء من اجزائه نقوم بدراسته ، مؤلف من كذا وكذا من اشياء لها كذا وكذا من الصفات ، ويمكننا ان نسمي مثل هذه الصيغة صيغة « ميتافيزيقية »

وعادة تعني الميتافيزيقا في الفلسفة البحث عن « المكونات النهائية للوجود » . وهكذا كان الماديون الذين قالوا ان ان المكونات النهائية هي الارواح . فكل هؤلاء الفلاسفة يظنون ميتافيزيقيين شأنهم شأن المثاليين الذين قالوا ان المكونات النهائية هي الارواح فكل هؤلاء الفلاسفة يظنون أن في وسعهم أن يلخصوا « الطبيعة النهائية للوجود » في صيغة معينة وكان لهؤلاء صيغة ولآخرين صيغة اخرى ، لكنهم كانوا جميعا ميتافيزيقيين ، بيد أن هذا البحث كان بحثا لا طائل وراءه ، فنحن لا نستطيع أن نوجز كل الكون المتغير غير المحدود في مثل هذه الصيغة ، وكلما زاد ما نكتشفه عنه زاد ذلك وضوحا

ولا بد أن يكون واضحا الآن أن المادية الميكانيكية التي ناقشناها في الفصول السابقة يمكن بنفس الدرجة ان تسمى

مادية ميتافيزيقية

ويمكن ايضا ان نلاحظ ـ بشكل عابر ـ ان فلاسفة معينين اليوم ـ هم من يسمون بالوضعيين الذين يقولون انه ليس لنا الحق في أن نؤكد وجود شيء الا مدركاتنا الحسية ـ يدعون أنهم « ضد الميتافيزيقا » لانهم يدعون رفض أي فلسفة تبحث عن « المكونات النهائية » ، و « الميتافيزيقا » لديهم تعني كل نظرية تعالج « الاشياء النهائية » التي لا يمكن التحقق منها بخبرة الحواس ، وهم في استخدامهم الكلمة بهذه الطريقة يخفون انهم هم أنفسهم أكثر ميتافيزيقية من أي فلاسفة آخرين لان طريقتهم في التفكير تصل الى أقصى التجريدات الميتافيزيقية فمن يمكن ان يكون اكثر ميتافيزيقية من الفلاسفة الوضعيين بتصورهم ان خبرة حواسهم توجد مجردة عن العالم المادي وخارجه عنا ؟ الواقع أنهم هم أنفسهم يحولون « خبرة الحواس » الى « شيء نهائي » ميتافيزيقي

وفي مقابل طريقة التفكير الميتافيزيقية المجردة يعلمنا الجدل ان نفكر في الاشياء في تغيراتها وعلاقاتها المتبادلة الواقعية، فالتفكير الجدلي يعني التفكير المحدد والتفكير المحدد يعني التفكير الجدلي وحين نواجه الميتافيزيقا بالمنهج الجدلي فاننا نوضح ان التجريدات الميتافيزيقية غير كافية واحادية الجانب وزائفة

ويمكننا هذا الاعتبار من فهم المعنى الاصلي لعبارة «الجدل» ، فالكلمة مستمدة من الكلمة اليونانية (ديالجو) وتعني النقاش او المجادلة فقد كانوا يعتبرون ان مناقشة مسألة ما من كل جوانبها ومن كل زواياها والسماح لمختلف وجهات النظر ذات الجانب الواحد بان تتعارض وتتناقض خلال المجادلة هي افضل الطرق للوصول الى الحقيقة ،وكان هذا هو الجدل الذي استخدمه سقراط مثلا ، فحين كان اي انسان يدعي الوصول الى صيغة تجيب على سؤال معين

اجابة نهائية كان سقراط يدخل معه في نقاش ، ويجبره على النظر الى المسألة من زوايا مختلفة ، ويدفعه بذلك الى ان يتناقض مع نفسه ، ومن ثم يعترف بان صيغته كانت زائفة وكان سقراط يعتبر انه من الممكن عن طريق هذا المنهج الوصول الى افكار اكثر صحة عن الاشياء

وقد تطور الجدل الماركسي عن الجدل بالمعنى الذي كان يفهمه الاغريق وشمله ، لكنه اصبح اكثر غنى في محتواه ، واكثر اتساعا في نطاقه وكنتيجه لذلك اصبح شيئا **جديدا** كيفيا بالمقارنة بجدل ما قبل الماركسية — اصبح منهجا ثوريا جديدا لانه يرتبط بمادية متماسكة ، ولانه كف عن ان يكون مجرد منهج للنقاش ، واصبح منهجا للبحث يقبل التطبيق على الطبيعة والمجتمع على السواء ، منهجا للفهم المادي للعالم ينبعث من النشاط لتغيير العالم ويقود هذا النشاط

« اما .. او » الميتافيزيقية

تفترض الميتافيزيقا مقدما ان لكل شيء طبيعته الثابتة ، وخصائصه الثابتة وتنظر الى كل شيء على حدة ، وتحاول ان تثبت طبيعة وخصائص كل الاشياء كمواضيع للبحث معطاة ومنفصلة دون نظر للاشياء في علاقاتها المتبادلة وفي تغيرها وتطورها

وبسبب هذا تفكر الميتافيزيقا في الاشياء بعبارات من تقائض جامدة ثابتة انها تقابل اشياء من نوع معين بأشياء من نوع اخر فاذا كان الشيء من نوع معين فان له مجموعة معينة من الخصائص واذا كان من نوع اخر فله مجموعة اخرى من الخصائص ، وكل نوع منهما يستبعد الاخر كل واحد منهما يدرس في انفصال عن الاخر

فالميتافيزيقي يرى الاشياء وصورها الذهنية ـــ الافكار ـــ معزولة ، تدرس الواحدة بعد الاخرى ، وبعيدة عن بعضها البعض يراها مواضيع للبحث جامدة ومعطاة مرة والى الابد انه يفكر بتقائض لا يمكن التوفيق بينهما مطلقا « ان اجاباته هي نعم نعم لا لا ، لان كل ما هو غير ذلك يأتي من الشرير » فالشيء اما ان يوجد او لا يوجد ؛ ومن المستحيل على الشيء بالمثل ان يكون هو نفسه وان يكون في نفس الوقت شيئا اخر (١).

وقد عبر الفلاسفة عن جوهر هذه الطريقة الميتافيزيقية في التفكير في صيغة « كل شيء هو ما هو عليه وليس شيئا اخر وقد لا يبدو هذا الا تفكيرا راجحا بسيطا لكن هذا لا يوضح الا ان ما يسمى الفكر الراجح انما يخفي افكارا مضللة يجب ان تكشف عنها العطاء، فهذه الطريقة في التفكير تمنعنا من دراسة الاشياء في تغيراتها وعلاقاتها في عملية تغيرها «من شيء ما» الى شيء اخر »

وليس الفلاسفة وحدهم هم الميتافيزيقيون

فهناك ناقيون يساريون مثلا يتساوون في ميتافيزيقيتهم مع اي مدرسة فلسفية ، فكل انسان في اجتماع فرع نقابتهم هو لديهم اما مفاضل واع طبقيا واما انتهازي بميني ، لا بد ان يأخذ كل انسان مكانه في هذا القسم او ذلك وحالما يصنف « كيميني » فقد انتهى امره بالنسبة لهم ولا تسمح لهم نظرتهم الميتافيزيقية للحياة ان يروا ان بعض العمال قد يكونون خصومهم في الماضي وفي مواضيع معينة ورغم ذلك يمكن ان يكونوا حلفاءهم في المستقبل وفي مواضيع اخرى

وفي احدى مسرحيات موليير ، رجل يتعلم النثر للمرة

---

(١) انجلز انتي دوهرنج ـــ المقدمة .

الاولى وحين شرحوا له ما هو النثر صاح « ماذا ، لقد كنت اتكلم النثر طيلة حياتي !»

وبالمثل هناك عمال كثيرون يمكنهم ايضا ان يقولوا ماذا لقد كنت ميتافيزيقيا طيلة حياتي !

ان لدى الميتافيزيقي صيغة جاهزة لكل شيء ؛ انه يقول — اما ان تصلح هذه الصيغة او لا تصلح ؛ فاذا كانت تصلح فقد انتهى الامر ، اما اذا لم تكن تصلح فان لديه صيغة بديلة جاهزة اما — او ولكن ليس الاثنين » هذا هو شعاره فالشيء اما هذا او ذاك اما له هذه المجموعة من الخصائص او تلك المجموعة ، ويرتبط الشيئان اما بهذه العلاقة واما بتلك

ويقود استخدام صيغة « اما او » الميتافيزيقية الى صعاب لا تحصى

فمثلا تثور الصعوبات في فهم العلاقة بين الامبريالية الاميركية والامبريالية البريطانية اليوم اذ يجرى النقاش بالطريقة التالية : اما انهما يعملان معا واما انهما لا يعملان معا فاذا كانا يعملان معا فليس ثمة شقاق بينهما ، واذا كان هناك شقاق بينهما فانهما لا يعملان معا . بيد ان الامر على العكس ، فهما يعملان معا ورغم ذلك فان ثمة شقاقا بينهما ولن نستطيع ان نفهم الطريقة التي يعملان بها معا ولا ان نحاربهما بطريقة فعالة الا اذا ادركنا الشقاق الذي يقسمهما .

كما نلمس الصعوبات عند فهم امكانية التعايش السلمي بين الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية ، اذ يجري النقاش بالطريقة التالية اما انهما يستطيعان ان يتعايشا سلميا وفي هذه الحالة لا بد ان تكف الخصومة بين الرأسمالية وبين الاشتراكية ، واما ان تبقى الخصومة وفي هذه الحالة لا يمكنهما ان يتعايشا سلميا . بيد ان الامر على العكس فالتناقضات العدائية باقية ، بيد ان مسعى الدول الاشتراكية وملايين الناس في كل البلاد من اجل السلام يمكن ان يقود الى علاقات سلمية

بين الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية

وغالبا ما يكون من الصعب تجنب الطريقة الميتافيزيقية في التفكير ذلك ان لها — رغم تضليلها — جذورا في شيء ضروري ومفيد جدا. فمن الضروري ان نصنف الاشياء — وان يكون لدينا نظام في تصنيفها وتحديد خصائصها وعلاقاتها هذا مطلب ضروري للتفكير الواضح ، ان علينا ان ندرك الاشياء المختلفة التي توجد في العالم، وان نقول ان لهذا الشيء ،تلك الخصائص التي تميزه عن تلك الاشياء التي لها خصائص اخرى ؛ وان نحدد ما هي العلاقة بينها

لكن حالما نسير الى هذه الاشياء والخصائص والعلاقات للنظر اليها معزولة كأشياء ثابتة ساكنة ، كعبارات تستبعد كل منها الاخرى ، فاننا سنبدأ في الخطأ ؛ فلكل شيء في العالم جوانبه الكثيرة المختلفة والمتناقضة في الواقع ، وهو يعيش في علاقة وثيقة بغيره من الاشياء وليس في عزلة ، ويخضع للتغير وهكذا كثيرا ما يحدث حين نضع شيئا في القسم «أ» وليس في القسم «ب» ان تقلب هذه الصيغة بتغيره من «أ» الى «ب» او الى «أ» في علاقة معينة مع «ب» او الى شيء ذي طبيعة متناقضة جزء منها من «أ» وجزء من «ب» .

فنحن مثلا نعرف الفارق بين الطيور وبين الثدييات ،ونعرف انه بينما تضع الطيور بيضا فان الثدييات عموما تلد ابناءها وترضعهم ، وقد اعتاد العلماء الطبيعة ان يعتقدوا ان الثدييات متميزة تماما عن الطيور لان الثدييات — الى جوار اسباب اخرى — لا تضع بيضا ، لكن هذه الصيغة قد قلبت تماما حين اكتشف حيوان يسمى البلاتيبوس فبينما لا يمكن الشك في انه حيوان ثديي فانه حيوان ثديي يضع بيضا ما هو تفسير هذا السلوك غير العادي للبلاتيبوس ؟ سنجد هذا التفسير في العلاقة التطورية بين الطيور والثدييات التي

تنتهي جميعا الى حيوانات اصلية تضع بيضا ، وقد استمرت الطيور في وضع البيض بينما توقفت الثدييات عن ذلك ـ فيما عدا حيوانات محافظة مثل البلاتيبوس فاذا نظرنا الى الحيوانات في تطورها فسيبدو هذا طبيعيا جدا ،ولكن اذا حاولنا ان نجعلها تندرج في خطة تصنيف جامدة ثابتة كما حاول علماء الطبيعة القدامى فان منتجات التطور ستقلب هذا التصنيف

كذلك فان فكرة او نظرية كانت تقدمية في ظل مجموعة معينة من الظروف حين نشأت اول مرة لا يمكن لهذا السبب اطلاق اسم « التقدمية » عليها بالمعنى المطلق ، اذ قد تصبح رجعية فيما بعد في ظل ظروف جديدة فالمادية الميكانيكية مثلا كانت نظرية تقدمية حين نشأت اول الامر لكننا لا نستطيع ان نقول انها ما زالت تقدمية اليوم ، بالعكس لقد اصبحت المادية الميكانيكية في ظل الظروف الجديدة التي نشأت نظرية منتكسه رجعية فالميكانيكية التي كانت تقدمية في مرحلة نشأة الرأسمالية تسير جنبا الى جنب مع المثالية كجزء من ايديولوجية الرأسمالية المنهارة

ويدرك الفكر السليم ايضا حدود الطريقة الميتافيزيقية في التفكير

فمثلا متى يكون الرجل اصلع ؟ يدرك الفكر السليم اننا وان كنا نستطيع ان نميز بين الصلع وغير الصلع الا ان الصلع يتطور خلال عملية فقد الشعر ، ومن هنا فان الناس وسط هذه العملية يدخلون مرحلة لا يمكن ان تحدد فيها بشكل مطلق اذا كانوا صلعا او لم يكونوا انهم في عملية التحول الى الصلع ويتحطم مفهوم « اما او » الميتافيزيقي

ونحن نواجه في كل هذه الامثلة تمييزا بين **العملية الموضوعية** حيث يمر شيء ما بعملية التغير ، وبين المفاهيم التي نحاول بها تلخيص خصائص الاشياء التي تشملها

العملية ولا تتوافق هذه المفاهيم ولا يمكن ان تتوافق دائما وفي كل الجوانب مع موضوعها لان هذه المواضيع بالتحديد وهكذا يقول انجلز في رسالة بعث بها الى س. شميدت واثارت حيرة هذا الاخير

هل المفاهيم السائدة في العلم الطبيعي خيالات لانها لاتتوافق دائما بأي حال مع الواقع؟ منذ اللحظة التي نقبل فيها نظرية التطور لا تتوافق مفاهيمنا عن الحياة العضوية مع الحقيقة الا بالتقريب والا فلن يكون هناك تغير، ففي اليوم الذي ستتوافق فيه المفاهيم مع الواقع بشكل مطلق سينتهي التطور (٢).

واوضح انجلز ان اعتبارات مماثلة تنطبق على كل المفاهيم دون استثناء

وحدة الاضداد وصراعها

حين نفكر في خصائص الاشياء ، وفي علاقاتها ، وفي اساليب فعلها وتفاعلها وفي العمليات التي تدخل فيها فسنجد ــ بشكل عام ــ ان كل هذه الخصائص والعلاقات والتفاعلات في العمليات تنقسم الى **اضداد اساسية** فلو فكرنا مثلا في ابسط اشكال فعل جسم على اخر فسنجد ان هذا الفعل اما التنافر او التجاذب واذا نظرنا الى الخصائص الكهربية للاجسام فسنجد أن هناك كهرباء موجبة وسالبة وفي الحياة العضوية يوجد بناء المركبات العضوية وتحطيمها .وفي الرياضة يوجد الجمع والطرح ، الزائد والناقص

---

(٢) انجلز : رسالة الى شميدت ١٢ مارس ١٨٩٥

وعلى وجه العموم فمهما كان مجال البحث الذي ننظر اليه فسنجد انه يشمل مثل هذه الاضداد الاساسية سنجد اننا لا ندرس مجرد عدد من الاشياء **المختلفة** والخصائص **المختلفة** والعلاقات **المختلفة** والعمليات **المختلفة** انما ازواجا من **الاضداد متضادة تضادا** اساسيا وكما قال هيجل وفي التضاد فأن المختلف ليس مواجها بأي مغاير وانما بمغايره هو (٣).

ومن هنا ، فاذا كنا نفكر في القوى التي تعمل بين جسمين فلن نجد مجرد عدد من القوى المختلفة، وانما سنجدها منقسمة الى قوى جذب وقوى تنافر واذا كنا نفكر في الشحنات الكهربية فلن نجد مجرد عدد من الشحنات المختلفة وانما سنجدها منقسمة الى شحنات موجبة وسالبة وهكذا ، فالجذب يقف مقابل التنافر ، والكهرباء الموجبة في مقابل الكهرباء السالبة.

ولا تفهم طريقة التفكير الميتافيزيقية مثل هذا التضاد الاساسي .

فالطريقة الميتافيزيقية في التفكير في المحل الاول، تحاول ان تتجاهل التضاد ولا تضعه في اعتبارها ، انها تسعى الى فهم موضوع ما ، على اساس عدد كبير من الخصائص المختلفة والعلاقات المختلفة بين الاشياء فحسب متجاهلة التضادات الاساسيةالتي تكشف عنها هذه الخصائص والعلاقات وهكذا فأولئك الذين يفكرون بطريقة ميتافيزيقية في المجتمعات المنقسمة طبقيا مثلا يحاولون ان يفهموا المجتمع باعتباره لا يتألف الا من عدد هائل من الافراد تربطهم ببعضهم كل انواع العلاقات الاجتماعية المختلفة ــ لكنهم يجهلون التضاد الاساسي بين المستغلين

---

(٣) هيجل « انسكلوبيديا العلوم الفلسفية » : المنطق قسم ١١٩ .

والمستغلين، ذلك التضاد الذي يظهر في كل هذه العلاقات الاجتماعية

وفي المحل الثاني فحين تلتقي طريقة التفكير الميتافيزيقية رغم ذلك بالتضادات الاساسية ، ولا تستطيع ان تتجاهلها، فانها — اخلاصا لعادتها في التفكير في كل شيء معزولا ثابتا ساكنا — تنظر الى هذه الاضداد معزولة عن بعضها البعض، وتفهمها منفصلة وكأن كلا منها يستبعد الاخر وهكذا مثلا تعود علماء الفيزياء القدامى ان يفكروا في الكهرباء الموجبة والسالبة على انهما ببساطة « تيارين كهربيين مختلفين

ولكن على عكس ما تقوله الميتافيزيقيا الاساسية ليست متضمنة في كل موضوع فحسب، بل ان هذه الاضداد تفترض نقائضها ، وهي ترتبط بها بشكل لا ينفصم ، ولا يمكن لاي منها ان يستبعد الاخر بل لا يمكن ان يوجد دونه او ان يفهم الا في علاقته معه

وتعرف خاصية التضاد هذه بالاستقطاب: فالاضداد الاساسية اقطاب متضادة فالمغنطيس مثلا قطبين ، قطب شمالي وقطب جنوبي ، لكن هذين القطبين — رغم تضادهما وتميزهما — لا يمكن ان يوجدا منفصلين فلو قسمنا المغنطيس الى جزءين فلن يكون هناك قطب شمالي في احدهما وقطب جنوبي في الاخر بل قطب شمالي وقطب جنوبي في كل جزء اذ ان القطب الشمالي لا يوجد الا كنقيض للاخر

وعلينا عموما ان نفهم التضاد الاساسي على انه تضاد بين قطبين وكل موضوع يجب ان يفهم في تضاد الاقطاب التي يحويها

وهكذا نجد في الفيزياء الجذب والتنافر متضمنا في كل عملية فيزيائية بطريقة لا تجعل من الممكن فصلهما او عزل

احدهما عن الاخر ؛ وعندما ندرس الاجسام الحية فلن نجد في بعض الحالات بناء مركبات عضوية وفي غيرها من الحالات تحطم هذه المركبات بل ان كل عملية حياة تتضمن كلا من عمليتي بناء وتحطيم المركبات العضوية ، وفي المجتمع الرأسمالي لا يمكن فصل التشريك المتزايد للعمل عن نقيضه المركزة الزائدة لرأس المال

ووحدة الاضداد هذه ـ حقيقة انه لا يمكن فهم الاضداد في انفصال عن بعضها وانما في علاقتها التي لا يمكن فصلها في كل ميدان من ميادين البحث ـ تبدو في علم الرياضة بشكل صارخ ؛ فالعمليات الاساسية هنا هي عمليات المتضادين الجمع والطرح وليس من الممكن فهم كل من الجمع والطرح بمعزل عن الاخر ؛ فالجمع يمكن ان يعبر عنه كطرح والعكس بالعكس ، وهكذا فعملية الطرح (ا ـ ب) يمكن ان تصور كعملية جمع (ـ ب + ا) وبالمثل فأن عملية قسمة ا على ب يمكن ان تمثل كعملية ضرب ا × (١/ب) (٤)

ولا يمكن بأي حال ان نفهم وحدة الاضداد ، وعلاقتها التي لا يمكن فصلها كعلاقة منسجمة وثابتة ، كحالة من التوازن بالعكس « ان وحدة الاضداد امر مشروط ، مؤقت ، انتقالي نسبي فصراع الاضداد التي تنفي بعضها البعض مطلق ، تماما كما ان التطور والحركة مطلقة (٥)

ان وجود المتضادات المستقطبة الذي يظهر في كل نواحي الطبيعة والمجتمع ، يعبر عن نفسه في **نزاع وصراع** بين الاتجاهات المتضادة التي تقود ـ رغم مراحل التوازن المؤقت ـ الى حركة وتطور مستمرين ؛ الى عملية دائمة من

---

(٤) انجلز جدليات الطبيعة « ملاحظة عن علم الرياضة » .

(٥) لينين ملاحظات فلسفية ـ « عن الجدل » .

ميلاد وفناء كل شيء في الوجود، الى تغيرات وتحولات حادة

وهكذا لا يمكن — مثلا — للتوازن بين قوى الجذب والتنافر في العالم الفيزيائي ان يكون اكثر من امر مشروط مؤقت فدائما ما يؤكد النزاع والصراع بين قوى الجذب والتنافر نفسه محدثا تغيرات وتحولات؛ سواء تحولات في مجال الذرة ، او تغيرات كيمائية او تغيرات، على نطاق واسع في انفجارات النجوم

الجدل والميتافيزيقا

ولنلخص حديثنا

تفكر الميتافيزيقا بعبارات من الاشيْاء الجاهزة »، وتسعى الى تثبيت خصائصها وامكانياتها وتحديدها بشكل نهائي،وهي تنظر لكل شيء على حدة ، معزولا عن كل شيء اخر بعبارات من نقائض اما او التي لا تقبل توفيقا، انها تقابل بين شيء واخر بين خصيصه واخرى ، بين علاقة واخرى دون نظر الى الاشياء في حركتها الحقيقية وعلاقاتها المتبادلة الحقيقية ودون نظر الى ان كل موضوع ما يمثل وحدة اضداد — متضادة ولكنها مرتبطة ببعضها ارتباطا لا ينفصم

وعلى عكس الميتافيزيقا يرفض الجدل التفكير في الاشياء كلا على حدة ، وعلى أن لها طبيعة ثابتة وخصائص ثابتة — « اما أو » — ولكنه يدرك ان الاشياء تولد وتوجد وتكف عن الوجود في عملية تغير وتطور لا ينتهي في عملية من العلاقات المعقدة المتداخلة المتغيرة أبدا لا يوجد كل شيء خلالها الا في علاقته مع غيره من الاشياء ، ويمر خلال سلسلة من التحولات تبدو خلالها دائما الوحدة — العلاقة المتداخلة التي لا تنفصم

ـ والصراع بين الخصائص والاتجاهات المتضادة المميزة لكل ظواهر الطبيعة والمجتمع

وعلى عكس الميتافيزيقيا يستهدف الجدل تتبع التغيرات والعلاقات المتبادلة الحقيقية في العالم ، والتفكير في الاشياء دائما في حركتها وعلاقاتها المتبادلة

وهكذا يقول انجلز في « لودفيج فيورباخ »

« لا يمكننا فهم العالم كمركب من أشياء جاهزة بل كمركب عمليات . . . ولا يمكن للمرء ان يسمح لنفسه أن تفرض عليه النقائض التي لم تستطع الميتافيزيقيا القديمة ان تتخطاها . . » (٦)

ويقول في « انتي ـ دوهرنج »

ان النقائض الجامدة القديمة الخطوط الفاصلة الحادة التي لا يمكن تجاوزها تختفي أكثر وأكثر . . . فادراك أن هذه النقائض والتمايزات توجد في الواقع في الطبيعة وانما بصحة نسبية ، وان اذهاننا من الناحية الاخرى هي التي ادخلت الجمود والاطلاق على الطبيعة ـ هذا الادراك هو حجر الزاوية في المفهوم الجدلي عن الطبيعة

فالجدل يدرك الاشياء وصورها الذهنية ـ الافكار ـ اساسا في علاقتها المتبادلة ، في تتابعها ؛ في حركتها في ميلادها وفنائها (٧)

وقال لينين ان فهم « الاجزاء المتناقضة » لكل ظاهرة هو « جوهر الجدل » انه « ادراك (اكتشاف) الاتجاهات المتناقضة المتضادة التي تنفي بعضها بعضا في كل ظاهرة وفي كل عملية من عمليات الطبيعة بما في ذلك الذهن والمجتمع »(٨)

---

(٦) ف. انجلز لودفيج فيورباخ » ـ الفصل الرابع

(٧) ف. انجلز انتي دوهرنج » ـ المقدمة

(٨) ف.أ. لينين ملاحظات فلسفية : « عن الجدل » .

واخيرا كتب ماركس

« الجدل في شكله العقلي نضيحة ورجس لدى البورجوازية وكل اساتذتها المذهبيين ، لانه يتضمن في شموله وحسمه ادراك الحالة القائمة للاشياء وفي نفس الوقت ايضا ادراك نفي هذه الحالة ، وانهيارها الحتمي ، لانه يعتبر كل شكل اجتماعي متطور تاريخيا في حركة دافقة ، وبذلك يضع في حسبانه طبيعته الانتقالية وبنفس الدرجة وجوده المؤقت ، لانه لا يترك شيئا يفرض عليه ، ولانه في جوهره نقدي وثوري » (٩)

(٩) ك . ماركس : « رأس المال » ــ مقدمة الطبعة الثانية

الفصل السابع

التغير والعلاقة المتبادلة

اربع سمات رئيسية للمنهج الجدلي الماركسي

قدم ستالين في كتيب واسع الانتشار عن « المادية الجدلية والمادية التاريخية » عرضا مفيدا لاربع من الوجوه التي تختلف فيها المعالجة الجدلية عن المعالجة الميتافيزيقية

١ ــ على عكس الميتافيزيقا لاينظر الجدل الى الطبيعة باعتبارها مجرد ركام من اشياء ، يوجد كل منها مستقلا عن الاخرين ، وانما هو يعتبر الاشياء مرتبطة وتابعة ومحدده ببعضها البعض » ومن هنا فانه يرى انه لا يمكن فهم شيء اذا ما اخذ وحده ، معزولا ؛ وانما يجب فهمه « في العلاقة التي لا تنفصم بغيره من الاشياء ، وباعتباره مشروطا بهذه الاشياء »

٢ــ على عكس الميتافيزيقا يعتبر الجدل كل شيء في «حالة من الحركة والتغير المستمرين ، من التجدد والتطور ، حيث

يوجد دائما شيء صاعد ومتطور، وشيء يتحلل ويفنى»؛ ومن هنا فانه ينظر الى الاشياء « لا من زاوية علاقاتها المتبادلة واعتمادها بعضها على البعض فحسب بل كذلك من زاوية حركتها ، وتغيرها ، وتطورها ، وميلادها وفنائها ».

٣ــ على عكس الميتافيزيقا لا ينظر الجدل الى عملية التطور على انها « عملية بسيطة من النمو » بل على انها « تطور يمر من التغيرات الكمية الى التغيرات الصريحة الاساسية ، التغيرات الكيفية « التي تحدث » فجأة متخذة شكل الوثبة من حالة الى اخرى ومن هنا فانه يعتبر التطور « حركة صاعدة ، انتقالا من الحالة الكيفية القديمة الى حالة كيفية جديدة ، تطورا من البسيط الى المعقد ، من الادنى الى الاعلى»

٤ــ على عكس الميتافيزيقا يؤمن الجدل بأن« عملية التطور من الادنى الى الاعلى تحدث . . .كتكشف للتناقضات الكامنة في الاشياء . . .كصراع للاتجاهات المتضادة التي تعمل على اساس هذه التناقضات »

وسنؤجل للفصل التالي دراسة السمتين الاخيرتين، اللتين تتعلقان بعملية التطور من حالة كيفية الى اخرى ، من الادنى الى الاعلى ، وسندرس في هذا الفصل السمتين الاوليين للمنهج الجدلي انه ينظر الى الاشياء دائما في علاقاتها المتبادلة وفي حركتها وتغيرها

دراسة الاشياء في علاقاتها المتبادلة وظروفها

يتطلب المنهج الجدلي اولا الا ندرس الاشياء كلا على حدة بل ان ندرسها دائما في علاقاتها المتبادلة بغيرها من الاشياء

وقد يبدو هذا « واضحا » ، بيد انه مبدأ « واضح » كثيرا ما يتجاهل ، ومن المهم جدا ان نتذكره ، وقد درسناه بالفعل

ورأينا بعض امثلة لتطبيقاته عند مناقشة الميتافيزيقا لان جوهر الميتافيزيقا هو التفكير في الاشياء بطريقة مجردة معزولة عن علاقاتها بغيرها من الاشياء ، وعن الظروف المحددة التي توجد فيها

ومبدأ دراسة الاشياء في علاقاتها بالظروف الواقعية ، وليس بعيدا عن هذه الظروف الواقعية ،مبدأ له دائما اهمية اساسية لحركة الطبقة العاملة في تقرير مسائل السياسة الاولية

فمثلا كان العمال البريطانيون في وقت من الاوقات يكافحون من اجل يوم عمل من عشر ساعات ، وكانوا في ذلك الوقت محقين في الا يقدموا كمطلب عادل يوم عمل من ثماني ساعات اذ لم يكن هذا بعد مطلبا قابلا للتحقيق ، وكانوا ايضا على حق بالمثل بعد ان حصلوا على يوم عمل من عشر ساعات الا يقنعوا به

وهناك اوقات يكون من الصحيح فيها لجزء من العمال ان يضربوا ، واوقات لا يكون ذلك فيها صحيحا، فيجب الحكم على مثل هذه الامور وفقا للظروف الواقعية لكل حالة ؛ وبالمثل هناك وحالات يكون من الصحيح فيها اطالة امد الاضراب وتوسيعه وحالات يكون من الصحيح فيها انهاؤه

واي قائد عمالي لن يكون ذا قيمة كبيرة اذا حاول ان يقرر كل كل مسائل السياسة على اساس «المبادىء العامة» وحدها دون ان يدخل في حسابه الظروف الواقعية التي عليه ان ينفذ سياسته فيها ؛ دون ان يدرك ان نفس السياسة يمكن ان تكون صحيحة في احدى الحالات وخاطئة في حالة اخرى ؛ تبعا للظروف المحددة لكل حالة

وهكذا يقول لينين :

« وبالطبع ، ففي السياسة ، حيث يجب في بعض الاحيان معالجة علاقات معقدة للغاية ـ قومية ودولية ـ بين الطبقات والاحزاب يكون من الحماقة أن نعد وصفة او قاعدة عامة تستخدم في كل الاحوال فلا بد ان يكون للمرء من العقل ما يمكنه من تحليل الوضع في كل حالة خاصة »(١).

وفي بعض الاحيان يسمى هذا الاستعداد من جانب الماركسيين لتكييف السياسة مع الظروف ، ولتغيير السياسية مع تغير الظروف « بالانتهازية » الشيوعية لكنها ليست شيئا من هذا النوع ـ او بالاحرى انها نقيض ذلك تماما ، انها تطبيق علم استراتيجية وتكتيكات صراع الطبقة العاملة ، فما الذي تعنيه الانتهازية في الواقع بالنسبة لسياسة الطبقة العاملة ؟انها تعني اخضاع المصالح البعيدة المدى للطبقة العاملة ككل ، للمصالح المؤقتة لجزء منها ، والتضحية بمصالح الطبقة دفاعا عن الامتيازات المؤقتة لمجموعة معينة ، ويستلهم الشيوعيون المبدأ الوارد في « البيان الشيوعي » وهو انهم دائما وفي كل مكان يمثلون مصالح الحركة ككل (٢) وهذا يتطلب من المرء ـ لصالح الحركة ككل ـ ان يحلل الوضع في كل حالة خاصة مقررا اية سياسة عليه ان يتبعها في كل حالة على ضوء الظروف المحددة.

فمثلا قال قادة العمال البريطانيين ذات مرة ـ ولا يزال كثير من اعضاء حزب العمال يقولون ذلك حتى اليوم ـ ان التأميم قسط من الاشتراكية ،انهم ينظرون الى التأميم في ذاته معزولا بعيدا عن علاقته بالدولة وبالتركيب الاجتماعي الذي تتخذ اجراءات التأميم في ظله ،انهم يتغافلون عن حقيقة انه اذا ظلت السلطة العامة ، الدولة ،في ايدى المستغلين ، واذا

---

(١) لينين الشيوعية اليسارية ، الفصل الثامن

(٢) ماركس وانجلز بيان الحزب الشيوعي الفصل الثاني

جلس ممثلوهم في هيئات ادارة الصناعات المؤممة وسيطروا عليها ، واستمرت هذه تدار على اساس استغلال عمل طبقة من اجل ربح طبقة اخرى ، فان التأميم ليس هو الاشتراكية ؛ فالتأميم الاشتراكي لا يمكن ان يولد الا حين تكون السلطة العامة ، الدولة ، في ايدي العمال.

العدالة » ، تلك الفكرة التي تقودهم الى الحكم على الاحداث

وكثيرا ما يلجأ الناس في المناقشات السياسية الى فكرة دون ادنى اعتبار للمعنى الحقيقي لهذه الاحداث وللظروف التي تجري فيها ،« الصلصة التي تصلح للاوزة ، تصلح لذكر الاوز» هذا هو المبدأ الذي يستخدمونه في مثل هذه المناقشات

وهكذا فهم يقولون انه اذا كنا ندافع عن حق العمال الديمقراطي: في بلد رأسمالي ، في الدعوة الى انهاء الرأسمالية وبناء الاشتراكية ، فاننا لا نستطيع ان ننكر على الاخرين في بلد اشتراكي الحق في الدعوة الى انهاء الاشتركية واعادة الراسمالية ، والذين يناقشون بهذه الطريقة يرفعون ايديهم في ذعر حين يجدون ان الجماعات السابقة المضادة للثورة في الاتحاد السوفياتي — تلك الجماعات التي كانت تسعى الى اعادة الرأسمالية في هذه البلاد — قد حرمت من امكانية تحقيق اهدافها ، وان نفس الشيء حدث فيما بعد للمجموعات ذات الاهداف المماثلة في المجر ، وعندئذ فانهم يصيحون ماذا ان هذا ليس ديمقراطيا ؛ ذا طغيان ! ومثل هذه المناقشة تتغافل الفارق بين النضال من اجل مصالح الاغلبية العظمى من الشعب لانهاء الاستغلال ، والنضال من اجل مصالح قسم صغير للمحافظة على الاستغلال او اعادته ، انها تتغافل الفارق بين الدفاع عن حق الاغلبية العظمى في ادارة شؤونها وفق مصالحها وبين الدفاع عن حق اقلية ضئيلة للابقاء على الاغلبية في القيود وبعبارة اخرى تتغافل الفارق بين الحركة الى الامام وبين

الحركة الى الخلف ، بين الاسراع بعقارب الساعة وبين ادارتها الى الخلف ، بين الثورة والثورة المضادة وطبيعي اننا حين نكافح لتحقيق الاشتراكية ، وحين نحققها ، فاننا سندافع عما احرزناه ، ولن نسمح بأدنى امكانية لاية جماعة لتحطيم هذا الانجاز ، ولندع الرأسماليين واذيالهم يتصايحون حول الديمقراطية « عموما » ، فلو « كان لدينا من العقل ما يمكننا من تحليل الوضع » — على حد تعبير لينين — فانهم لن يخدعونا

وقد اصبحت الفكرة الليبرالية عن « العدالة » في الواقع سلاحا مفضلا للرجعية اخيرا ، فحين قرر الفاشيست في سنة ١٩٤٩ ثم في ١٩٥٠ القيام بمظاهرة في لندن في اول مايو منع وزير الداخلية بحزم مظاهرة العمال في اول مايو، وشرح موقفه في رياء : اذا كان على ان امنع مظاهرة فلا بد ان امنع الاخرى ايضا اي « عدالة مداهنة »

الجدلية والمنهج العلمي

ان فهم الاشياء في ظروفها وعلاقاتها المتبادلة لا ينفصل عن فهمها في حركتها وتغيرها لان العلاقات الحقيقية بين الاشياء ، والطرق التي تؤثريها على بعضها البعض ، تبدو في حركتها ، في عمليات ميلادها وتوقفها عن الوجود والمعالجة الجدلية اساسية في كل نوع من انواع العلوم لان العلوم تكشف العلاقات بين الاشياء في عمليات التغير، التي تكتسب فيها الاشياء مختلف الخصائص ، وتغير خصائصها

وعلى سبيل المثال كان هذا هو المنهج الذي اتبعته نظرية تطور الكائنات الحية في مجال العلوم البيولوجية . فقد كانت الفكرة الاساسية لداروين هي فكرة العلاقة المتداخلة بين الكائن والبيئة في عملية التطور . وفي حين اكتفت النظريات السابقة بوصف كل نوع على حدة والنظر الى كل نوع على

ان له طبيعة ثابتة لا تتغير خلقت مرة والى الابد ، درس داروين الفوارق والعلاقات بين الانواع باعتبارها ناشئة في عملية التطور التي ادى فيها الانتقاء الطبيعي الى بقاء الاشكال تلك التي تجسد التكيف مع البيئة

وتحاول العلوم عند النظر الى كيفيةحدوث التغيرات الا تدرس فحسب علاقات الاشياء وخصائصها التي تبدو من الظاهر ، وانما تدرس كيف تتألف وتترابط هذه العمليات الداخلية التي تحدد المظاهر الخارجية للاشياء وقد تحقق هذا في تقدم العلوم الفيزيائية

وتجسد ذلك ايضا في العلوم البيولوجية، في الابحاث والاكتشافات الحديثة ، في مجال علم الوراثة تتعلق هذه الابحاث والاكتشافات اساسا بالعلاقات المتداخلة والتغيرات التي تحدث في عمليات تكاثر الخلايا الحية ، وكيف يؤثر هذا ـ في كل عملية حياة الكائنات في بيئاتها ـ على نمو الكائنات واشكالها

ويمكننا في هذا الصدد ان نصف بشكل عابر ـ اعمال ليزنكو التي اثارت الجدال في الاتحاد السوفياتي بانها نوع من سوء تطبيق الجدلية .

فقد دافع ليزنكو عن مبدأ وحدة الكائن والبيئة ـ واستخلص انه بوضع الكائنات في بيئات متغيرة ، وكذلك بمختلف الوان التطعيم في حالة النباتات ، فاننا نستطيع ان نفرض التغيرات على وراثتها اذا امكن استخدام التعبير ، وفي بعض الحالات كانت هذه المحاولات ناجحة ، كما وقف بحق ضد النظريات العتيقة القائلة ان الطبيعة الوراثية للكائنات لا تتغير ، لكنه حين وصف نظرية الحينيات والتفاعل بين الحينيات بانها « ميتافيزيقية » (أو في الحقيقة « مثالية ») فقد كان هو نفسه يقع في معالجة غير جدلية وغير مادية الى اقصى حد ـ اذ عجز عن ان يرى ضرورة دراسة العلاقة المتداخلة بين

العمليات الداخلية والعمليات الخارجية في تحديد نمو الكائنات وتغيراتها

دراسة الاشياء في حركتها

ولبدأ دراسة الاشياء في حركتها ، في تغيرها ، في ميلادها وفنائها اهمية هائلة لا للعلوم الطبيعية وحدها وانما في الفهم وفي الممارسة الثوريين ومن الضروري دائما هنا ان نولي اهتمامنا لما هو جديد ما هو صاعد وتام — وليس الى ما هو موجودة في اللحظة الراهنة فحسب وانما لما يولد

فقد رأى البلاشفة الروس مثلا — منذ البداية الاولى — كيف يتحرك المجتمع الروسي — وما هو جديد فيه ، ماذا يولد فيه ، وتطلعوا الى ما هو صاعد ونام رغم انه كان لا يزال ضعيفا — اي الى الطبقة العاملة ، فبينما طرح الاخرون اهمية الطبقة العاملة ، وانتهوا الى التهادن مع قوى المجتمع القديم استخلص البلاشفة ان الطبقة العاملة هي القوة الجديدة الصاعدة ، وقادوها الى النصر

واليوم — بالمثل — حين تمتلىء الصحف والاذاعات بتفاخر وتهديد الامبرياليين الاميركيين واتباعهم، فاننا نبرز ما هو صاعد ونام في العالم كله ، معسكر الشعوب للسلام ، هذا المعسكر الذي لا بد له ان يواصل النمو ، وان يسحق الامبرياليين في كارثة مشينة

وفي النضال من اجل وحدة حركة الطبقة العاملة ، وفيما يتعلق بحزب العمال البريطاني والنقابات المرتبطة به ، فاننا نعطي انتباهنا قبل كل شيء لما هو صاعد ونام في الحركة،ومن هنا فاننا نرى ابعد من سياسة القادة اليمينيين ونفوذهم ،ان للجناح اليميني اساسه في الماضي ، وان ظل قويا ومسيطرا ولكن قوى المستقبل تنبعث ، مصممة على النضال ضد الرأسمالية والحرب

وبالمثل فيما يتعلق بالافراد ــ يجب ان نحتضن ونبني ما يولد فيهم ، ما هو صاعد ومتحرك الى الامام وهذا ما يفعله السكرتير او المنظم الجيد

وتوضح لنا مثل هذه الامثلة ان اساس المنهج الجدلي ،المبدأ الاكثر اساسية فيه ، هو ان ندرس وندرك الاشياء في علاقاتها المتداخلة وحركتها المحددة

ضد الخطط الجاهزة ــ الحقيقة محددة دائما

يتصور بعض الناس احيانا ان الجدل خطة متصورة من قبل ؛ يجب ان تتلاءم كل الاشياء داخل نموذجها ، وهذا التصور مضاد تماما لحقيقة الجدل ، فاستخدام المنهج الجدلي الماركسي لا يعني اننا نطبق خطة متصورة من قبل ونحاول ان نجعل كل شيء يتلاءم داخلها كلا انه يعني اننا ندرس الاشياء كما هي عليه حقا، في علاقاتها المتداخلة وحركتها الحقيقية ، قال لينين ان اكثر الاشياء جوهرية في الماركسية هو التحليل المحدد للظروف المحددة » (٣)

وهذا امر اكده لينين المرة بعد الاخرى ، واعلن انه القضية الاساسية للجدل »

وقال لينين ان الجدل الحقيقي يتقدم « عن طريق التحليل التفصيلي الدقيق للعملية بكل تحديدها، فالقضية الاساسية للجدل هي: انه لا توجد حقيقة مجردة فالحقيقة دائما محددة » (٤)

---

(٣) اقتبسه ماوتسي تونج في « عن التناقض ». انظر لينين ــ الاعمال الكاملة ــ الطبعة الروسية ــ موسكو ١٩٥٠ المجلد ٣١ صفحة ٤٣.

(٤) لينين خطوة الى الامام خطوتان الى الخلف . « شيء عن الجدل».

ما الذي يعنيه بقوله « الحقيقة دائما محددة » ؟ انه يعني بالدقة اننا لن نصل الى حقيقة الاشياء ، سواء في الطبيعة او في المجتمع ، باكتشاف خطة عامة ما ، صيغة مجردة ما ، وانما بمحاولة اكتشاف ما هي القوى التي تعمل في كل عملية، وما هي علاقاتها بعضها ببعض ، وما هو صاعد ونام، وما هو منهار يموت ، وعلى هذا الاساس نصل الى تقدير للعملية ككل

وهكذا قال انجلز:« لا يمكن ان تكون هناك مسألة بناء قوانين الجدل في الطبيعة ، بل مسألة اكتشافها فيها وانضاجها منها فالطبيعة هي محك الجدل » (٥)

وفيما يتعلق بدراسة المجتمع،وتقديرنا للتغيرات الاجتماعية الحقة التي نقيم عليها استراتيجيتنا السياسية فقد سخر لينين من اولئك الذين كانوا يتخذون من بعض الخطط المجردة المتصورة من قبل مرشدا لهم

وطبقا لبعض « الثقات » يقول الجدل الماركسي ان كل تطور يجب ان يتقدم خلال قضية ثلاثية ــ الموضوع ــ النقيض ــ التركيب ، وقد سفه لينين ذلك قائلا :

من الواضح لكل انسان ان النقل الاساسي لحجة انجلز هو أن الماديين يجب ان يصوروا العملية التاريخية بشكل سليم دقيق ، وان الاصرار على اختيار الامثلة التي توضح صحة القضية الثلاثية ليس سوى بقية من بقايا الهيجلية .. والحق انه حالما نعلن ان محاولة « اثبات» اي شيء عن طريق القضايا الثلاثية امر احمق فأي مغزى سيظل لامثلة العملية « الجدلية » ؟... ان كل من يقرأ تعريف ووصف انجلز للمنهج الجدلي سيجد انه لا يذكر ثلاثيات هيجل ، وانه ينتهي الى النظر الى التطور الاجتماعي

---

(٥) انجلز انتي ــ دوهرنج ـ المقدمة والمدخل

كعملية تطور طبيعية تاريخية « وما سماه ماركس وانجلز المنهج الجدلي ليس شيئا اكثر او اقل من المنهج العلمي في علم الاجتماع ، الذي يتألف من اعتبار المجتمع كائنا حيا في حالة دائمة من التطور ، تتطلب دراسته تحليلا موضوعيا لعلاقات الانتاج التي تشكل التكوين الاجتماعي المعين ، وبحثا لقوانين عملها وتطورها » (٦).

ولندرس بعض الامثلة لما يعنيه « تحليل العملية بكل تحديدها » ، ومبدأ ان « الحقيقة دائما محددة » ، في مواجهة المنهج الذي يحاول ان يضع بعض الخطط المتصورة من قبل للتطور الاجتماعي والذي يلجأ الى مثل هذه الخطط كأساس لسياسته

اعتاد المناشفة في روسيا القيصرية ان يقولوا « لا بد ان توجد لدينا الراسمالية قبل الاشتراكية » ، فيجب اولا ان تمر الرأسمالية بتطورها الكامل ثم تتبعها الاشتراكية كانت هذه هي خطتهم ، وبالتالي فقد ايدوا الليبراليين في السياسة ، ودعوا العمال الا يتجاوزوا في كفاحهم النضال من اجل ظروف افضل في المصانع الرأسمالية

وقد دحض لينين هذه الخطة الحمقاء،واوضح ان الليبراليين — وقد افزعهم العمال — سيتهادنون مع القيصر، ولكن تحالف العمال والفلاحين يمكنه ان ينتزع القيادة منهم وان يطوح بالقيصر ، ثم يمضي الى التطويح بالرأسماليين وبناء الاشتراكية قبل ان تكون الرأسمالية قادرة على التطور الكامل .

وبعد نجاح الثورة البروليتارية عرضت خطة جديدة — وعرضها هذه المرة تروتسكي « لن نستطيع ان نبني الاشتراكية

---

(٦) لينين « من هم اصدقاء الشعب وكيف يحاربون الاشتراكية الديمقراطية » — الجزء الاول .

في بلد واحد، فما لم تحدث الثورة في البلاد الرأسمالية المتقدمة فلن توجد الاشتراكية في روسيا »؛ واوضح لينين وستالين ان هذه الخطة ايضا زائفة فحتى لو لم تحدث الثورة في البلاد الرأسمالية المتقدمة ، فسيظل لدى تحالف العمال والفلاحين في الاتحاد السوفياتي القوة اللازمة لبناء الاشتراكية

وكان يقال عادة في بلاد اوروبا الغربيه لا بد ان توجد الفاشية قبل الشيوعية » فأولا سيتخلى الرأسماليون عن الديمقراطية ويدخلون الديكتاتورية الفاشية وبعد ذلك سيطوح العمال بالديكتاتورية الفاشية ولكن الشيوعيين ردوا على ذلك قائلين كلا، سنكافح مع كل القوى الديموقراطية للمحافظة على الديموقراطية البورجوازية ولهزيمة الفاشستية ، وسيخلق هذا افضل الظروف للسير الى الامام نحو استيلاء الطبقة العاملة على السلطة والبدء في بناء الاشتراكية

واخيرا نسمع اليوم الحجة التالية . الرأسمالية تعني الحرب ، وعلى هذا فالحرب حتمية » كلا ان هذه الخطة زائفة بدورها لقد حاول الراسماليون ان يواصلوا سياستهم في حروب السلب لكنهم لا يستطيعون ان يشنوا الحرب دون الشعب ، وكلما زاد استعدادهم للحرب كلما زاد وضوح عدوانيتهم ، وكلما زادت محاولات دولة كبرى لفرض سيطرتها على غيرها ، كلما زادت الصعاب التي يفرضونها على الشعب وزادت قدرة الشعوب على التجمع لمواجهة حربهم ؛ ومن هنا فأن من الممكن المحافظة على السلم، وعندما نكافح للحفاظ على السلام فاننا نستطيع ان نرسي الاساس لانهاء الظروف التي تثير خطر الحرب وهكذا ليست الحرب حتمية ومن الممكن هزيمة خطط الامبرياليين ، من الممكن هزيمتها اذا جمعت الطبقة العاملة

حولها كل القوى المحبة للسلام. واذا هزمنا خطط الامبرياليين للحرب فسيكون هذا افضل الطرق نحو انهاء الرأسمالية ذاتها

وبناء الاشتراكية ؛ فلن تنتهي الرأسمالية بالانتظار حتى تحطم نفسها في حروب حتمية وانما بالاتحاد لمنع تحقق خططها للحرب

وسيتضح من كل هذه الامثلة ان قبول خطة جاهزة ما ، صيغة مجردة يعني السلبية ومساندة الرأسمالية وخيانة الطبقة العاملة والاشتراكية ؛ ولكن المعالجة الجدلية التي تدرك الاشياء في علاقاتها المتداخلة وحركتها المحددة توضح لنا كيف نشق طريقنا الى الامام — كيف نناضل ،وأي الحلفاء علينا جذبهم ؛ وهذه هي القيمة التي لا تقدر للمنهج الجدلي الماركسي بالنسبة لحركة الطبقة العاملة

الفصل الثامن

قوانين التطور

ماذا نعني بالتطور

حين ندرس اي عملية — سواء في الطبيعة او المجتمع — فسنجد دائما كما لاحظ ستالين في كتيبه «المادية الجدلية والمادية التاريخية» انه يوجد « تجدد وتطور؛ حيث هناك دائما شيء صاعد ومتطور وشيء متحلل يموت » (١)

وحين يصل الشيء الصاعد والمتطور الى النضوج، ويختفي نهائيا ما يتحلل ويموت، حينئذ ينشأ شيء **جديد** .

فكما رأينا عند نقد المادية الميكانيكية ، لا تكرر العمليات دائما نفس الدائرة من التغيرات ، وانما تتقدم من مرحلة الى اخرى مع نشوء شيء جديد باستمرار

وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة « تطور » فنحن نتحدث عن التطور » حيث ينشأ شيء **جديد** مرحلة بعد مرحلة

وهكذا فهناك فرق بين مجرد **التغير** وبين التطور؛ فالتطور تغير يتقدم وفقا لقوانينه الداخلية من مرحلة الى مرحلة

وهناك بالمثل فرق بين النمو وبين التطور ، وهذا الفرق مألوف لعلماء الحياة مثلا ؛ وهكذا يعني النمو الكبر — مجرد تغير كمي ؛ لكن التطور لا يعني الكبر وانما الانتقال الى مرحلة

---

(١) ستالين : المادية الجدلية والمادية التاريخية .

بكيفية جديدة ، التحول الى شيء متغير كيفيا

وهكذا فالدودة مثلا تنمو طولا وعرضا ثم تنسج لنفسها شرنقة ، واخيرا تخرج منها فراشة ، وهذا هو التطور فالدودة **تنمو** الى دودة اكبر **وتتطور** الى فراشة

ولا تمثل عمليات الطبيعة والتاريخ مجرد التغير ، مجرد النمو ، وانما التطور ، فهل نستطيع اذن ان نصل الى اي استنتاجات عن القوانين العامة للتطور ؟ هذه هي المهمة الجديدة للمادية الجدلية — ان تكتشف اي قوانين عامة تبدو في كل تطور ، وان تعطينا بالتالي **منهج المعالجة** الذي يمكننا من فهم التطور وتفسيره والتحكم فيه

الكم والكيف قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية

ويصل هذا بنا الى السمتين الاخيرتين للمنهج الجدلي الماركسي ، ويمكن ان نسمي اولاهما « قانون تحول التغير الكمي الى تغير كيفي » فماذا يعني هذا ؟

كل تغير له جانب كمي ، اي جانب من مجرد الزيادة والنقص لا يغير من طبيعة ما يتغير

لكن التغير الكمي ، الزيادة او النقصان لا يمكن ان يستمر الى ما لا نهاية ، فعند نقطة معينة يقود هذا التغير الى تغير كيفي ، وعند نقطة التحول هذه (او « النقطة الحرجة » كما سماها هيجل)، يحدث التغير الكيفي بشكل مفاجيء نسبيا عن طريق الوثبة اذا جاز التعبير

فمثلا اذا سخنا الماء فانه لا يزداد حرارة الى ما لا نهاية ، فعند درجة حراره حرجة معينة يبدأ في التحول الى بخار ويمر بتحول كيفي من سائل الى غاز ، والحبل الذي يستخدم لرفع الاثقال قد تربط به اثقال اكبر واكبر ولكن ليس ثمة حبل يحمل ثقلا لا نهائيا فعند نقطة معينة لا بد وان يتمزق الحبل ، وقد

تتحمل الغلاية ضغطا متزايدا من البخار ـــ الى درجة معينة تنفجر بعدها

ونجد هذا القانون عن تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية في المجتمع كذلك ، فقبل ان يوجد نظام الراسمالية الصناعية حدثت عملية من تراكم الثروة في شكل نقود في ايدى قلة (عن طريق نهب المستعمرات اساسا) ومن تكون بروليتاريا لا تملك شيئا (عن طريق تسييج الارض وطرد الفلاحين وعند نقطة معينةمن هذه العملية ، حين تراكمت النقود **الكافية** لتزويد المنشآتالصناعية براس المال ، وحين تحول عدد **كاف** من الناس الى بروليتاريا لتقديم العمل اللازم، نضجت الظروف لتطور الرأسمالية الصناعية، عند هذه النقطة ولد التراكم في التغيرات الكمية مرحلة كيفية جديدة في تطور المجتمع

وتحدث التغيرات الكيفية عموما بفجائية نسبية ـــ بوثبة ، ان شيئا جديدا يولد فجأة ، رغم ان امكانياته كانت تحويها عملية التحول التدريجي للتغيرات الكمية المستمرة التي حدثت من قبل

وهكذا نجد ان التغير الكمي التدريجي المستمر يؤدي عند نقطة معينة الى قطع الاستمرار ،الى تغير كيفي فجائي ، وقد لاحظنا بالفعل في فصل سابق ان غالبية من درسوا قوانين التطور في الطبيعة والمجتمع قد تصوروا هذا التطور في جانبه المستمر وحده ، ويعني هذا انهم نظروا اليه من زاوية عملية النمو وحدها ، من زاوية التغير الكمي ولم ينظروا الى جانبه الكيفي ، الى حقيقة انه عند نقطة معينة من عملية النمو التدريجي ينشأ فجأة كيف جديد ، يحدث تحول

بيد ان هذا ما يحدث دائما ، فحين تغلى اناء يبدأ الماء فجأة في الغليان عندما يصل الى نقطة الغليان ، وحين تخفق بيضا ، فان المزيج في الاناء « يختلط » فجأة ، ويحدث نفس الامر

عندما نعمل في تغيير المجتمع ، فلن نغير المجتمع الراسمالي الى مجتمع اشتراكي الا عندما نحل حكم طبقة بحكم طبقة اخرى — وهذا تحول جذري ، وثبةالى حالة جديدة للمجتمع ثورة

واذا درسنا — من الناحية الاخرى — الكيف ذاته ، فان التغير الكيفي ينشأ دائما كنتيجة لتراكم من التغيرات الكمية ، وللاختلافات في الكيف ، اساسها في اختلافات فيالكم

وهكذا فتماما كما يولد التغير الكمي بالضرورة ، تغيرا كيفيا عند نقطة معينة ، فان علينا اذا اردنا ان نحدث التغير الكيفي ان ندرس اساسه الكمي ، وانعرف ماذا يجب زيادته وماذا يجب انقاصه ، اذا اردنا احداث التغيير المطلوب

ويعلمنا العلم الطبيعي كيف تحدث الفوارق الكمية الخالصة — الاضافة او الانقاص — فوارق كيفية في الطبيعة ، فاضافة بروتون واحد مثلا في نواة الذرة يحدث الانتقال من عنصر الى اخر ، فذرات كل العناصر تتكون من اتحاد نفس البروتونات والالكترونات ، لكن الاختلاف الكمي المحض بين الاعداد المتحدة في الذرة يعطينا انواعا مختلفة من الذرات ، ذرات من عناصر مختلفة وذات خصائص كيمائية مختلفة ؛ وهكذا فذرة تتكون من بروتون واحد واليكترون واحد هي ذرة ايدوجية ، ولكن اذا اضيف بروتون اخر والكترون اخر فانها تكون ذرة هيليوم وهكذا ؛ وبالمثل ففي المركبات الكيمائية تحدث اضافة ذرة واحدة الى الجزيىء الفارق بين المواد ذات الخصائص الكيمائية المختلفة ، وعموما فان للفوارق الكيفية اساسها في الفوارق الكمية

كذلك فان القنبلة الهيدروجينية تعتمد على ظروف كمية محددة لانفجارها فرد الفعل الحراري النووي الذي يشكل الانفجار لا يحدث الا حين توجد درجة كافية من الحرارة ومن هنا ينبغي توليد هذه الحرارة ؛ عن طريق انفجار ذري ؛ لكي

تفجر القنبلة الهيدروجينية

وهكذا وضع انجلز المسألة

« ففي الطبيعة ، وبطريقة محددة بدقة لكل حالة مفـــردة، لا يمكن أن تحدث التغيرات الكيفية الا عن طريق الاضافـــة او الطرح الكميين للمادة او الحركة

« فكل الفوارق الكيفية في الطبيعة تقوم على فوارق فـــي التركيب الكيمائي او على كميات او اشكال مختلفة من الحركة، او عليهما معا كما هي الحالة غالبا ؛ ومن هنا فان من المستحيل ان نغير كيف جسم دون اضافة او طرح مادة او حركة اي دون تغير كمي للجسم المشار اليه» (٢)

وهذه السمة من سمات القانون الجدلي المتعلقة بالكـــم والكيف مألوفة لقراء الكتابات المبسطة عن القنابل الذرية

فمن الضروري لصنع قنبلة اورانيوم وجـــود النظير ـــ يورانيوم ٢٣٥ ، فالنظير ، يورانيوم ٢٣٨ الشائع لن يؤدي الى شيء ، والفارق بين هذين الاثنين هو مجرد فارق كمي ، فـــي الوزن الذري ؛ يتوقف على عدد النيوترونات الموجودة في كل منهما ، لكن هذا الفارق الكمي في الوزن الذري ٢٣٥ و٢٣٨ ، يحدث الفرق الكيفي بين المادة ذات الخصائص المطلوبة للقنبلة والمادة التي ليست لها هذه الصفات واكثر من هذا ، فبعـــد الحصول على كمية من اليورانيوم ٢٣٥ فأن « كتلـــة حرجـــة » معينة منها لازمة حتى تنفجر ؛ فاذا لم تتوفر فلن تحدث سلسلة ردود الفعل التي تحدث الانفجار ، وحين نصل الى « الكتلـــة الحرجة » يحدث رد الفعل

وهكذا نرى ان التغيرات الكمية تتحول عند نقطة معينـــة الى تغيرات كيفية ، وان التغيرات الكيفية تقوم على فـــوارق كمية ، وهذه سمة شاملة للتطور ، فما الذي يجعل مثل هـــذا التطور يحدث ؟

---

(٢) انجلز ـــ جدليات الطبيعة ، الفصل الثاني

يحدث التطور خلال وحدة وصراع الاضداد

يكمن السبب في ان التغير الكمي يؤدي الى تغير كيفي — عموما — في طبيعة العمليات المعينة ذاتها ، في محتواها ، وعلى هذا فسنستطيع في كل حالة — اذا توفرت لنا المعرفة الكافية — ان نفسر حتمية تغير كيفي ، ولماذا يحدث عند النقطة التي يحدث فيها

وكيما نفسر ذلك يجب ان ندرس وقائع الحالة ، فلن نستطيع ان نبتدع تفسيرا بمساعدة الجدل وحده ، فما يساعدنا فيه فهم الجدل هو انه يفسر لنا اين نبحث ، فقد لا نعرف في حالة خاصة كيف ومتى يحدث التغير ومهمتنا في هذه الحالة هي اكتشافه ببحث وقائع الحالة ، اذ ليس هناك سر مختف خلف نشوء شيء جديد كيفيا

فلندرس مثلا — حالة التغير الكيفي الذي يحدث حين يغلي الماء

حين نعرض كتلة من الماء في اناء للحرارة ، فان التأثير الذي نحدثه هو زيادة حركة الجزيئات التي تكون الماء ، وطالما ظل الماء في حالة سيولة فان قوى الجذب بين الجزيئات تكون كافية لكي تضمن انه — رغم ان بعض جزيئات السطح تفلت باستمرار — فان الكتلة كلها تتماسك باعتبارها كتلة ماء داخل اناء بيد انه عند درجة الغليان تكون حركة الجزيئات قد وصلت الى درجة من العنف كافية لكي يبدأ عدد كبير منها في الافلات من الكتلة ، ومن هنا نلاحظ تغيرا كيفيا ، وتبدأ فقاقيع الماء في الظهور ، وتتحول كتلة الماء سرعة الى بخار ، ويحدث هذا التغير بوضوح كنتيجة للمتضادات التي تعمل داخل كتلة الماء — اتجاه الجزيئات الى التحرر في مواجهة قوى الجذب بينها ، ويزداد الاتجاه الاول قوة حتى يتغلب على الاتجاه الاخير كنتيجة للفعل الخارجي للحرارة في هذه الحالة

وقد درسنا مثلا اخر هو مثل الحبل الذي يتمزق حين يصبح الثقل الذي يحمله كبيرا جدا ،وهنا ايضا يحدث التغير الكمي كنتيجة للتضاد القائم بين قوة نسيج الحبل وبين جذب الثقل

وتوصلنا هذه الامثلة للنتيجة العامة القائلة انه حيثما تحدث عملية تطور ، فمع تحول التغيرات الكمية فيها الى تغيرات كيفية ، يوجد دائما صراع بين الاضداد ـ بين الاتجاهات المتضادة بين القوى المتضادة ـ داخل الاشياء والعمليات التي ندرسها

وهكذا يقودنا قانون ان التغيرات الكمية تتحول الى تغيرات كيفية ، وان الفوارق في الكيف تقوم على اساس فوارق في الكم ؛ يقودنا هذا القانون الى قانون وحدة وصراع الاضداد

وقد قدم ستالين صياغة جيدة وان لم تكن كاملة ـ لهذا القانون في كتيبة « المادية الجدلية والمادية التاريخية »

على عكس الميتافيزيقا يؤمن الجدل بان التناقضات الداخلية كامنة في كل الاشياء وفي كل ظواهر الطبيعة ؛ ففي كل منها جوانب سلبية وجوانب ايجابية ، ماض ومستقبل ، شيء يموت وشيء يتطور ؛ والصراع بين هذه الاضداد الصراع بين القديم والجديد ، بين ما يموت وبين ما يولد ، بين ما يختفي وما يتطور ، يشكل المحتوى الداخلي لعملية التطور المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية » .

«ومن هنا يؤمن من المنهج الجدلي بان عملية التطور من الادنى الى الاعلى لا تحدث كتفتح متناسق للظاهرة ؛ وانما كتكشف للتناقضات الكامنة في الاشياء وفي الظواهر ، «كصراع» بين الاتجاهات المتضادة التي تعمل على اساس هذه التناقضات » (٣)

---

(٣) ستالين : « المادية الجدلية والمادية التاريخية » .

الخيالية والاشتراكية العلمية » كيف تفهم الماركسية تناقضات الرأسمالية وتطورها ، هذا الانتصار الذي يتوج المنهج الجدلي

فليس التناقض الاساسي للرأسمالية هو مجرد النزاع بين طبقتين ، تواجه احداهما الاخرى كقوتين خارجيتين متنازعتين كلا انه التناقض داخل النظام الاجتماعي ذاته ، الذي ينشأ على اساسه ويعمل النزاع الطبقي

لقد ولدت الرأسمالية :

« تركز وسائل الانتاج في ورش ومصانع كبيرة ، وتحولها الى وسائل انتاج اجتماعية في الواقع ، لكن وسائل الانتاج الاجتماعية والمنتجات الاجتماعية تعامل على انها ما زالت كما كانت من قبل وسائل انتاج ومنتجات فردية وحتى الان كان مالك ادوات العمل يستحوذ على المنتج لانه كقاعدة من انتاجه بينما ان العمل المساعد لاشخاص اخرين كان هو الاستثناء ، اما الان فان مالك ادوات الانتاج ستمر في الاستحواذ على المنتج رغم انه لم يعد من **انتاجه** بل اصبح بشكل كامل انتاج **عمل الاخرين** ، ومن هنا فان المنتجات التي تنتج الان اجتماعيا لا يستحوذ عليها هؤلاء الذين حركوا وسائل الانتاج ، والذين انتجوا هذه المنتجات حقا ، وانما يستحوذ عليها الرأسماليون » (٥)

ومن هنا فان التناقض الاساسي للرأسمالية هو التناقض بين الانتاج الاجتماعي وبين التملك الرأسمالي ، وعلى اساس هذا التناقض يتطور الصراع بين الطبقات

في هذا التناقض تظهر بالفعل جرثومة كل النزاع في عصرنا . . . فيظهر التناقض بين الانتاج الاجتماعي وبين التملك

---

(٥) انجلز انتى دوهنرج ، الجزء الثالث . الفصل الثاني او الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية — الفصل الثالث .

وعلينا كيما نفهم التطور ، كيما نفهم كيف ولماذا تؤدي التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية ، كيمانفهم كيف ولماذا يحدث الانتقال من حالة كيفية قديمة الى حالة كيفية جديدة علينا ان نفهم التناقضات الكامنة في كل شيء وكل عملية تدرسها وكيف ينشأ « صراع » الاتجاهات المتضادة على اساس هذه

ان علينا ان نفهم هذا بشكل محدد — في كل حالة — واضعين في اذهاننا تحذير لينين ان « القضية الاساسية للجدل هي الحقيقة دائما محددة » ؛ فلن نستطيع استخلاص قوانين التطور في حالة محددة من مبادىء الجدل العامة ان علينا ان نكتشفها عن طريق البحث الواقعي لكل حالة ، لكن الجدل يدلنا على ما نبحث عنه

جدلية التطور الاجتماعي — تناقضات الرأسمالية

اتضحت جدلية التطور — وحدة وصراع الاضداد — بشكل كامل في العلم الماركسي للمجتمع ؛ فهنا نستطيع من زاوية نضال الطبقة العاملة ؛ وعلى اساس خبرة الطبقة العاملة ؛ ان نكتشف جدلية تناقضات الراسمالية وتطور هذه التناقضات بكل دقة

لكن مبادىء تطور المجتمع ليست مضادة لمبادىء تطور الطبيعة بل هي ذاتها في الجوهر ؛ وان كانت مختلفة في شكلها وفي مظهرها في كل حالة ، وهكذا قال انجلز

« لم يكن لدى شك انه وسط خضم التغيرات التي لا تحصى والتي تحدث في الطبيعة تعمل نفس قوانين الحركة الجدلية التي تحكم في التاريخ الاحداث التي تبدو عرضية » (٤)

وقد شرح انجلز في عبارات عامة في كتابه « الاشتراكية

---

(٤) انجلز انتي دوهرنج . المقدمة .

الرأسمالي في شكل تناقض عدائي بين البروليتاريا وبين البورجوازية »(٦).

ولا يمكن ان يحل هذا التناقض الا بانتصار الطبقة العاملة؛ حين تقيم الطبقة العاملة ديكتاتوريتها وتقيم الملكية الاجتماعية لتتوافق مع الانتاج الاجتماعي

ويوضح هذا المثل تماما النقطة التي تحدث عنها ستالين ، الصراع بين الاتجاهات المتضادة التي تعمل على اساس هذه التناقضات » فالصراع الطبقي يوجد ويعمل على اساس التناقضات الكامنة في النظام الاجتماعي ذاته

ويحدث التحول الاجتماعي ، الوثبة الى مرحلة كيفية جديدة من التطور الاجتماعي ، نتيجة لهذا الصراع بين الاتجاهات المتضادة بين القوى المتضادة الناشئة على اساس التناقضات الكامنة في النظام الاجتماعي

وبهذه الطريقة نرى قوانين التطور الجدلي ، التي يوجزها مبدأ تحول التغير الكمي الى تغير كيفي ومبدأ وحدة وصراع الاضداد ، نرى هذه القوانين وهي تعمل في تطور المجتمع وعلى هذا يجب على الطبقة العاملة ان تتعلم كيف تفهم الوضع الاجتماعي على ضوء قوانين الجدل لكي تستطيع ان تقوم بالتحول الاشتراكي للمجتمع وعليها — مسترشدة بهذا الفهم ان تضع تكتيكات واستراتيجية صراعها الطبقي على اساس التحليل المحدد للوضع الواقعي في كل مرحلة من مراحل الصراع

---

(٦) نفس المصدر

الفصل التاسع

التناقض

التناقضات كامنة في العمليات

درسنا في الفصل السابق كيف يحدث التغير الكيفي عن طريق الصراع بين القوى المتضادة ، واعطينا لذلك امثلة بكل من التغير في حالة الجسم من السيولة الى الصلابة او الغازية وتغير المجتمع من الرأسمالية الى الاشتراكية ففي كل حالة تعمل اتجاهات متضادة ، يؤدي « صراعها » الى تحول اساسي ما ، الى تغير كيفي

وليس هذا « الصراع » خارجيا وعرضيا كما لا نستطيع ان نفهمه تماما اذا افترضنا انه مسألة قوى او اتجاهات تنبعث مستقلة بعضها عن بعض ويتصادف ان تلتقي ، فتصطدم ببعضها وتتنازع

كلا ان الصراع داخلي وضروري لانه ينبعث من طبيعة العمليات ككل وينبع منها وليست الاتجاهات المتضادة مستقلة عن بعضها البعض ولكنها ترتبط باطنا لا انفصام له كاجزاء او جوانب لكل واحد ، وهي تعمل وتتنازع على اساس التناقض الداخلي في العملية ككل .

فالحركة والتغير يحدثان من اسباب **داخلية** في الاشيـــاء والعمليات ، من تناقضات **داخلية**

فالمفهوم الميكانيكي القديم عن الحركة مثلا كان يعتبر انها لا تحدث الا حين يصطدم جسم باخر ، فليست هناك اسبـــاب داخلية للحركة اي « حركة ذاتية » وانما اسباب خارجية ، لكن الامر على العكس ، فالاتجاهات المتضادة التي تعمل في مجرى تغير حالة الجسم تعمل على اساس الوحدة المتناقضة بيـــن قوى الجذب والتنافر الكامنة في كل الظواهر الفيزيائية

وينبعث الصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي على اساس الوحدة المتناقضة الكامنة في المجتمع بين العمل الاجتماعـــي والملكية الخاصة وهو لا ينشأ كنتيجة لاسباب خارجية وانما كنتيجة للتناقضات في جوهر النظام الرأسمالي ذاته ، ومـــن الناحية الاخرى يقول منظرو حزب المحافظين والجناح اليميني من حزب العمال ان الصراع الطبقي انما يحركه تدخـــل خارجي ـــ « المهيجون الشيوعيون » « وعملاء السوفيـــات » ويؤمنون بانهم لو استطاعوا ان يوقفوا هذا التدخل الخارجـــي لاستطاع النظام ان يسير سيرا حسنا

وليست الضرورة الداخلية لصراع القوى المتضادة ، ونتاج هذا الصراع القائم على اساس التناقضات الداخلية فـــي العملية ككل ، ليس هذا مجرد ترف من التحليل الفلسفي ، فان له اهميته العملية الكبيرة

فمنظرو البورجوازية مثلا قادرون تماما على ان يدركـــوا حقيقة النزاعات الطبقية في المجتمع الرأسمالي اما مـــا لا يدركوه فهو ضرورة هذا النزاع ، هو ان هذا النزاع يقـــوم على اساس تناقضات داخلية في طبيعة النظام الراسمالـــي ذاتها، وانه لهذا لا يمكن الا ان يتوجه في النهاية دمار النظـــام ذاته واستبداله بنظام جديد ارقى للمجتمع ، ولهذا فهم يحاولون ان يخففوا النزاع الطبقي ، وان يهبطوا بحدته ، ويوفقوا بين

الطبقات المتضادة ، او ان ينبذوه خارجا ويحافظوا بذلك على سلامة النظام ، وتنقل الاشتراكية الديمقراطية هذه الفكرة البورجوازية بالتحديد عن النزاع الطبقي الى داخل الحركة العمالية

وفي معارضة مثل هذه الطريقة الضحلة الميتافيزيقية لفهم النزاع الطبقي اوضح لينين انه

كثيرا ما يقال ويكتب ان قلب نظرية ماركس هو الصراع الطبقي ، ، لكن هذا ليس صحيحا فان قصر الماركسية على ان تكون نظرية للصراع الطبقي يعني الحجر عليها وتشويهها والهبوط بها الى شيء يمكن ان تقبله البورجوازية ، فالماركسي هو الذي يوسع قبوله للصراع الطبقي الى قبول ديكتاتورية البروليتاريا، وهنا يكمن الفارق العميق بين الماركسية وبين نظرية عادية بورجوازية صغيرة (او حتى كبيرة). هذا هو المحك الذي يجب ان يختبر عليه الفهم والقبول الحقيقي للماركسية » (١)

وعموما ، فالتناقض كامن في العملية المعينة والصراع الذي يميز العملية ليس صداما خارجيا بين عوامل متضادة عارضة ، بل هو من فعل التناقضات التي تنتمي الى طبيعة العملية ذاتها ، وهذا هو الذي يحدد نتاج العملية

التناقض هو وحدة وصراع الاضداد

المفهوم الاساسي للجدل هو مفهوم التناقض الكامن في طبيعة الاشياء ذاتها — هو ان القوى المحركة للتغير الكيفي تكمن في التناقضات التي تحويها حل عمليات الطبيعة والمجتمع وانه لكي نفهم الاشياء في التطبيق ونسيطر عليها يجب ان نبدأ

---

(١) : « الدولة والثورة » ـ الفصل الثاني

من التحليل المحدد لتناقضاتها

فماذا نعني « بالتناقض » بالدقة ؟

يحدث التناقض — وفقا للمفهوم الميتافيزيقي الشائع — في افكارنا عن الاشياء لا في الاشياء ذاتها ؛ فنحن نستطيع ان نقدم قضايا متناقضة عن شيء ما ،وعندئذ سيكون هناك تناقض فيما نقوله عنه ، ولكن لا يمكن ان يوجد التناقض في الشيء ؛ ووجهة النظر هذه تنظر الى التناقض ببساطة على انه مجرد علامة منطقية بين قضايا ، لكنها لا تنظر اليه كعلاقة واقعية بين الاشياء ومثل وجهة النظر هذه تقوم على اساس اعتبار الاشياء ساكنة ، ثابتة ومتجمدة » دونما نظر الى حركتها وعلاقاتها الداخلية الديناميكية

واذا درسنا الحركات والعلاقات الداخلية الواقعية المعقدة للاشياء الواقعية المعقدة ، لوجدنا ان الاتجاهات المتناقضة يمكن ان توجد فيها ، وتوجد فيها بالفعل؛ فاذا كانت القوى التي تعمل في جسم ما مثلا تجمع بين اتجاهات التجاذب والتنافر فان هذا تناقض واقعي؛ واذا كانت حركة المجتمع تجمع بين الاتجاه لتشريك الانتاج والاتجاه للمحافظة على الملكية الخاصة للمنتجات فان هذا تناقض حقيقي ايضا

ووجود التناقضات في الاشياء أمر مألوف جدا وليس في ذلك شيء مبهم وكثيرا ما نشير اليه في حوارنا اليومي فنحن نقول عن انسان مثلا أن له شخصية « متناقضة » أو أنه مجموعة من التناقضات » ويعني هذا أنه يكشف عن اتجاهات متضادة في سلوكه ، مثل الرقة والوحشية ، والجراة والجبن والانانية والتضحية بالنفس ، كما أن العلاقات المتناقضة هي موضوع ثرثرتنا اليومية حين نتحدث عن الازواج الذين يتشاجرون دائما لكنهم لا يكونون سعداء ابدا اذا انفصلوا

وتوضح مثل هذه الامثلة أننا حين نتحدث في الفلسفة

الماركسية عن التناقضات في الاشياء » فاننا لا نبتدع نظرية فلسفية بعيدة المنال ، انما نشير الى شيء مألوف لكل امرىء كما اننا لا نستخدم كلمة « التناقض » بمعنى جديد غريب يخصنا نحن وانما نستخدم الكلمة بمعناها العادي اليومي

والتناقض الواقعي هو **وحدة** للاضداد ، فثمة تناقض واقعي كامن — كما قلنا — في طبيعة الشيء أو العملية أو العلاقة ذاتها حين تتحد في هذا الشيء أو العملية أو العلاقة لاتجاهات متضادة معا بطريقة لا تجعل احدا منها قادرا على أن يوجد دون الاخر ففي وحدة الاضداد تقف الاضداد معا في علاقة من التبعية المتبادلة بحيث يكون كل منها شرطا لوجود الاخر

فالتناقض الطبقي بين العمال والرأسماليين في المجتمع الرأسمالي مثلا هو بالتحديد مثل هذه الوحدة للاضداد ، ففي هذا المجتمع لا يمكن ان يوجد العمال دون الرأسماليين، ولا أن يوجد الرأسماليون دون العمال ان طبيعة المجتمع تقضي بأن يقف هذين الضدين معا في وحدة لا تنفصل وتنتمي وحدة الاضداد هذه الى جوهر النظام الاجتماعي ذاته ، فالرأسمالية نظام يستغل فيه الرأسماليون العمال ويستغل فيه العمال بواسطة الرأسماليون

ووحدة الاضداد في التناقض هي التي تجعل **الصراع** بين الاضداد امرا ضروريا لا يمكن الفكاك منه، فما دام الضدان يتحدان بشكل لا ينفصم فلا مهرب من هذا الصراع وهكذا فاذ تتحد الطبقات المتضادة في المجتمع الرأسمالي — فان تطور هذا المجتمع يتقدم — ولا يمكن الا ان يتقدم — في شكل الصراع الطبقي

ونستطيع ايضا ان نتحدث عن **تداخل** الاضداد في التناقض فاذ تتحد هذه الاضداد في صراع ، فان كل اتجاه مضاد يتأثر

في طبيعته الواقعية وعمله في اي مرحلة من مراحل الصراع يتأثر او يتعدل او ينفذ فيه الاخر بطرق عديدة ، فكل جانب يتأثر دائما بعلاقته بالجانب الاخر

حل التناقضات

لن نستطيع ان نفهم عمليات الطبيعة والمجتمع ، ولا ان نسيطر ونسود عليها ، الا اذا فهمنا تناقضاتها ونتائج هذه التناقضات ــ الطريقة التي تحل بها

فالتناقض هو القوة الدافعة للتغير ، وهكذا فاذا اردنا ان نفهم كيف تتغير الاشياء ، وان نسيطر على هذه التغيرات ونستغلها ، فان علينا ان نفهم تناقضاتها

لماذا نقول ان التناقض هو القوة الدافعة للتغير ، لان وجود التناقض في العملية هو وحدة الذي يوفر الظروف الداخلية التي تجعل التغير ضروريا ، فالعملية التي لا تحوى تناقضات ستستمر تسير وتسير بنفس الطريقة حتى توقفها او تعدلها قوى خارجية ، والحركة التي لا تحوى تناقضات ستكون تكرارا مستمرا لنفس الحركة ، فوجود التناقضات او الاتجاهات المتناقضة للحركة ،او لوحدة وصراع الاضداد هو الذي يحدث **التغيرات** في الحركة في مجرى العملية

فلتتخيل اذا استطعت مجتمعا بلا تناقضات ؛ سيكون هذا مجتمعا يقوم فيه الناس باشباع كل احتياجاتهم بالاستمرار في اداء نفس الاشياء بنفس الطريقة ومثل هذا المجتمع لا يمكن ان يتغير ، وستكون هناك حركة مستمرة فيه طالما ظل الناس يفعلون نفس الاشياء طيلة الوقت ، لكن الحركة تكون هي نفسها ستكون هناك عملية ، لكنها عملية تكرار

بيد انه لا يوجد ــ ولا يمكن ان يوجد ــ مثل هذا المجتمع لان طبيعة ظروف الحياة الانسانية ذاتها تتطلب دائما التناقض في المجتمع ، فالناس يخلقون باشباعهم لحاجياتهم حاجات

جديدة لم تشبع وبتقدمهم بقوى الانتاج يخلقون وضعا يحتاجون فيه الى تغيير علاقاتهم ومؤسساتهم الاجتماعية بما يتوافق معها ، وهذا هو سبب حدوث التغير في المجتمع ، فالعملية الاجتماعية ليست عملية تكرار ، بل هي عملية تحدث فيها اشياء جديدة

وقد حاول بعض الماديين الميتافيزقيين ان يصوروا الكون كنظام من الجزئيات التي تصطدم ببعضها البعض ، ومثل هذا الكون سيكون كونا من الحركة المستمرة للجزئيات ، لكنه سيكون كونا من التكرار المستمر لنفس الحركة ، والكون الحقيقي ليس على هذه الصورة ، لانه مليء بالتناقضات — التناقضات بين قوى الجذب والتنافر التي تدرسها الفيزياء ، او اتحاد وتفكك الذرات التي تدرسها الكيمياء ، او عمليات الحياة والعلاقة بين الكائن وبيئته التي يدرسها علم الحياة، وحل هذه التناقضات (في اشكالها المحددة في العمليات المحددة) هو الذي يحدث العمليات المتغيرة في العالم الواقعي المتغير .

ويوضح هذا انه حيثما توجد التناقضات فسيتبع هذا حل هذه التناقضات — حل الصراع بين الاضداد الذي ينشأ عن الوحدة بينها ، فالعملية هي حل التناقضات الاساسية التي تشكلها

عمومية التناقضات وخصوصيتها

التناقض سمة عامة في كل العمليات ، لكن لكل نوع خاص من أنواع العمليات تناقضاته الخاصة ، وهي تناقضات تميزه وتختلف عن تناقضات غيره من العمليات

وقد ابرز ماوتسي تونج هذه النقطة في بحثه «عن التناقض» الذي لا يزال واحدا من أغنى التحليلات لهذا المفهوم في الادب الماركسي ، وسماها التمييز بين « عمومية » التناقض « وخصوصيته »

ولن نستطيع أبدا أن نستخلص ما سيحدث في اية حالة خاصة ولا كيف يمكن السيطرة على عملية خاصة ، من الفكرة العامة للتناقض ، فكما اوضحنا من قبل لا يتألف المنهج الجدلي من تطبيق خطة ما سبق تصورها لتفسير كل شيء ، وانما يتألف من اقامة استنتاجاتنا على اساس « التحليل المحدد للظروف المحددة ».

ولكل نوع من العمليات جدليته التي لا يمكن ادراكها الا عن طريق الدراسة التفصيلية لهذه العملية الخاصة ، فجدلية عالم ما تحت الذرة ليست هي نفس جدلية الاجسام التي ندركها بحواسنا وجدلية الكائنات الحية ليست هي نفس جدلية عمليات المادة غير العضوية ، وجدلية المجتمع الانساني هي تانون جديد للحركة ، وكل مرحلة من مراحل الاجتماع الانساني تجلب معها جدليتها الخاصة

وهكذا — مثلا — فالتناقض بين اتجاهات الجذب والتنافر في الحركة الفيزيائية وبين مصالح الطبقات في المجتمع ، كلها تناقضات ، وهذا دليل على عمومية التناقض ، لكن لكل منها طابعه المميز وشكله المختلف عن الاخر وهذا شاهد على خصوصية التناقض

ولن نستطيع أن نعرف قوانين الفيزياء او قوانين المجتمع اذا حاولنا استخلاصها من الفكرة العامة عن التناقض ، لن نستطيع ان نعرفها الا بدراسة العمليات الفيزيائية والاجتماعية ، فالحركات الفيزيائية وحركة الناس في المجتمع اشكال مختلفة تماما للحركة ، وهكذا فالتناقضات التي يدرسها العلم الاجتماعي تختلف وتحل بطريقة مختلفة عن تلك التي يدرسها علم الفيزياء ، وتتماثل العمليات الاجتماعية والعمليات الفيزيائية في ان كلا منها يحوى تناقضات لكنها تتباين في التناقضات التي يحويها كل منها

والتناقضات التي تميز كل نوع من أنواع العمليات يمكن أن

تسمى التناقضات الاساسية لهذا النوع من العمليات فمثلا تعتبر التناقضات بين قوى الجذب والتنافر تناقضات أساسية للعمليات الفيزيائية والتناقضات بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج تناقضات أساسية للعملية الاجتماعية

واذا درسنا بعد ذلك التناقضات الاساسية التي تميز الانواع المختلفة من العمليات لاستطعنا ان نقول ايضا انها تظهر بطرق محددة في لحظات محددة لعمليات من نوع معين

فالتناقضات الاساسية للعمليات الاجتماعية مثلا تظهر بطرق محددة في كل تشكيل اجتماعي محدد ، فالتناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج تتخذ اشكالا محددة في تشكيلات المجتمع المختلفة ، وهكذا فهو يتخذ في المجتمع الرأسمالي الشكل الراسمالي المحدد للتناقض بين الطابع الاجتماعي المتزايد للانتاج وبين المحافظة على الملكية الخاصة

كذلك فان العلاقات بين انواع الكائنات الحية وبين بيئتها علاقات تناقض ، فالكائن لا يعيش الا بواسطة بيئته ، وفي نفس الوقت تحوى بيئته تهديدات لحياته عليه ان يتغلب عليها باستمرار ، ويأخذ هذا التناقض في حالة الانسان علاقة التناقض المحددة بين الانسان والطبيعة وهذه العلاقة ذاتها تتخذ أشكالا أكثر تحديدا مع كل مرحلة من مراحل تطور الانسان الاجتماعي ، فالانسان جزء من الطبيعة يعيش بواسطة الطبيعة ، وهو يعيش بمواجهة الطبيعة واخضاعها لارادته ، وتتطور علاقة التناقض هذه ذاتها وتتخذ اشكالا محددة مع تطور الانسان فهي قائمة مثلا في كل من الشيوعية البدائية والشيوعية لكنها تتخذ في المجتمع الاخير صورة تختلف عنها في المجتمع الاول

وهكذا فلكي نفهم عملية ما ولكي نعرف كيف نسودها ونسيطر عليها ، علينا ان نعرف تناقضاتها الاساسية وان ندرس الاشكال المحددة التي تتخذها هذه التناقضات

نتاج التناقضات

تتميز وحدة الاضداد في تناقض ما بعلاقة محددة من السيادة ــ والخضوع ، أو من السيطرة بين الاضداد ، ففي الوحدة الفيزيائية بين التجاذب والتنافر مثلا تكون بعض عناصر التجاذب والتنافر هي السائدة في علاقتها بالعناصر الاخرى ، وتكون الوحدة بطريقة تجعل أحد الجانبين سائدا على الاخر ــ او قد يكونان متساويين في بعض الحالات

وتتوافق كل حالة كيفية لعملية ما مع علاقة سيادة محددة؛ وهكذا فحالات صلابة وسيولة وغازية الاجسام تتوافق مع علاقات سيادة مختلفة لوحدة التجاذب والتنافر التي تميز جزئيات الاجسام وبالمثل ففي التناقضات داخل المجتمع الرأسمالي تلعب الملكية الخاصة الدور السائد في علاقاتها بضدها ــ الانتاج الاجتماعي ــ وتسود الطبقة الرأسمالية الطبقة العاملة ، فاذا قلبت علاقات السيادة فسيكون هذا شاهدا على حدوث تغير كيفي ، نهاية الوضع الرأسمالي للمجتمع وبداية وضع جديد

وواضح ان علاقات السيادة ــ بحكم طبيعتها ذاتها ــ ليست دائمة ، وأنها قابلة للتغير ولو كانت تبقى غير متغيرة لفترة طويلة في بعض الحالات ، فاذا أخذت العلاقة شكل التساوي أو التوازن فان هذا التوازن بطبيعته غير ثابت لان ثمة صراعا للاضداد داخله كفيل بأن يؤدي الى سيطرة احدها على غيره ، فاذا ما ساد أحد الضدين على الاخر فان صراع الاضداد يتضمن امكانية قلب الوضع

قال لينين « وحدة الاضداد مشروطة ، مؤقتة ، انتقالية ، نسبية ، وصراع الاضداد مطلق » وواضح أن هذا صحيح، فمهما كانت علاقة السيادة في وحدة الاضداد فانها قابلة

للتغير ، وكنتيجة لذلك تنتهي وحدة الاضداد القديمة وتحل محلها وحدة أضداد جديدة

وهكذا فنتاج حل التناقضات هو تغير علاقة السيادة التي تميز الوحدة الاولى للاضداد ، ويؤلف مثل هذا التغير تغيرا في طبيعة شيء ما ، تغيرا من حالة الى اخرى ، تغيرا من شيء الى شيء تغيرا لا يحوى فقط بعض التعديلات الخارجية بل تغيرا في الطبيعة الداخلية للشيء وقوانين حركته

ومثل هذا التغير بالتحديد هو الذي نعنيه بالتغير «الكيفي» .

فاذا كانت قطعة من الحديد مثلا مطلية بالاسود وطليناها باللون الاحمر فان هذا ليس سوى تغيير خارجي (يؤثر في الطريقة التي تعكس بها الضوء وبذلك يؤثر في مظهرها أمام العين التي تراها) لكنه ليس تغيرا كيفيا بالمعنى الذي نحدده الان ؛ ومن ناحية اخرى اذا سخنا الحديد حتى درجة الانصهار فان هذا يكون تغيرا كيفيا ، وقد حدث هذا التغير بالتحديد كتغير في علاقة التجاذب والتنافر المميزة لحالة الجزيئات في المعدن ، وينتقل المعدن من حالة الصلابة الى حالة السيولة وتصبح طبيعته الداخلية وقوانين حركته مختلفة في بعض النواحي انه يمر بتغير كيفي

فالتغير الكيفي هو نتاج لتغير في توازن الاضداد ، وتحضر لهذا التغير سلسلة من التغيرات الكمية تؤثر على علاقة السيادة في وحدة الاضداد واذ تتغير علاقة السيادة يتحول التغير الكمي الى تغير كيفي

وحين يحدث هذا التغير الاساسي او الكيفي كنتيجة لتحلل الشكل القديم لوحدة الاضداد ونشأة شكل جديد فان الاضداد ذاتها تتغير ، فالجانب الذي ينتقل من كونه مسودا ليصبح سائدا يتغير في هذه العملية ، وكذلك يتغير الجانب الاخر الذي كان سائدا فاصبح مسودا ، ومن هنا فلن نجد في الحالة الكيفية الجديدة نفس الاضداد القديمة في علاقة متغيرة ، فاذ

تغيرت العلاقة تغيرت ايضا الاضداد التي كانت تربط بينها هذه العلاقة ، ان هناك وحدة جديدة للاضداد ، تناقضا جديدا

فمثلا حين تصبح الطبقة العاملة اقوى من الطبقة الرأسمالية وتنتقل من كونها مسودة لتكون سائدة فستختفي في الحالة الكيفية الجديدة الطبقة الرأسمالية (لان الطبقة العاملة السائدة ستحرمها من شروط وجودها) وتصبح الطبقة العاملة التي تعيش في ظروف جديدة كلية طبقة جديدة في الواقع ، ومن هنا تتغير تناقضات المجتمع ، تختفي التناقضات الخاصة بالحالة القديمة ، وتولد تناقضات جديدة ، وينتهي الصراع بين الطبقة العاملة وبين الرأسماليين وتبدأ انواع جديدة من الصراع .

الاسباب الخارجية والداخلية للتغير الكيفي

الى اي حد يتحدد الانتقال من التغير الكمي الى التغير الكيفي بفعل التناقض الكامن في العملية ذاتها أو بفعل الاسباب الداخلية ، والى اي حد يتحدد بفعل الاسباب الخارجية أو العرضية ؟

انها تتحدد بكلا النوعين ولكن بطرق مختلفة

ففي الطبيعة والمجتمع تتفاعل الاشياء وتؤثر في بعضها البعض على الدوام ، ومن هنا لا بد ان تلعب الاسباب الخارجية دورا في التغيرات التي تحدث في الاشياء ، وفي نفس الوقت تتوقف طبيعة التغيرات دائما على الاسباب الداخلية

وقد ناقش ماوتسي تونج هذه المشكلة في بحثه « عن التناقض » واستخلص ان : التناقض داخل شيء ما هو السبب الاساسي لتطوره بينما ان علاقة الشيء بغيره من الاشياء ــ علاقاته وأفعاله المتبادلة ــ هي سبب ثانوي فالاسباب الخارجية شرط التغير ، والاسباب الداخلية أساس التغير ، وتعمل الاسباب الخارجية من خلال الاسباب الداخلية »

فلندرس مثلا حادثا مثل نفس البيضة ، فالكتكوت لا يتطور داخل البيضة الا اذا تعرضت البيضة للحرارة من الخارج لكن الذي يتطور داخل البيضة ويفقس منها يتوقف على ما هو داخل البيضة ، فكما لاحظ ماو : « في درجة حرارة ملائمة تتغير البيضة الى كتكوت إلكن لا توجد درجة حرارة قادرة على أن تغير حجرا الى كتكوت اذ أن أساسيات الشيئين مختلفة »

كذلك لا يغلي الماء الا بالتسخين ، لكن عملية الغليان الناتجة عن التسخين تنشأ على اساس التناقض الداخلي بين التجاذب والتنافر الذي يميز جزيئات الماء

وبالمثل في المجتمع لا تتقدم الثورة دون تدخل اسباب خارجية ، لكن طبيعتها ونتاجها ، بل والواقع حدوثها ذاته ، يتوقف على الاسباب الداخلية . وهكذا يكمن أساس الثورة الروسية في التناقضات داخل المجتمع الروسي ذاته ؛ فهذه التناقضات قد جعلت الثورة حتمية وحددت طبيعتها ، لكن الذي اشعل الثورة بالفعل سنة ١٩١٧ كان شيئا خارجيا الظروف التي ولدتها الحرب الامبريالية

وبشكل عام لن نستطيع ونحن ندرس التغيرات الكيفية أن نفسر طابعها الكيفي الا بفعل الاسباب الداخلية ، فالتناقضات الخاصة التي كان يقوم على اساسها الكيف القديم تحدد اي كيف جديد سينشأ ، ولا تؤثر الاسباب الخارجية الا في التغيرات الكمية في الاشياء — أزمنة وأماكن بدئها والمعدل الذي تتقدم به

« فالاسباب الخارجية الخالصة لن تؤدي الا الى تغير في الحجم والكم ، لكنها لا تستطيع أن تفسر لماذا تختلف الاشياء كيفيا بألف طريقة وطريقة ولماذا يتغير شيء الى شيء » (٢)

---

(٢) ماوتسي تونج عن التناقض

وهكذا يمكن مثلا الاسراع او الابطاء بالصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي بواسطة عديد من الاسباب الخارجية ، لكن وجود الصراع الطبقي واستمراره واتجاهه ونتاجه النهائي انما تحددها التناقضات الداخلية في المجتمع الرأسمالي.

فجائية وتدريجية التغير الكيفي

لما كان التغير الكيفي هو نتاج فعل التناقضات فسينتج عن هذا انه يمكن النظر الى عملية صراع الاضداد كلها باعتبارها عملية احلال كيف محل اخر ، استبدال كيف جديد باخر قديم ، ويتوافق الكيف القديم مع سيادة أحد العناصر في وحدة الاضداد ، ويؤدي قلب هذه السيادة الى احلال الكيف الجديد محل القديم ، وبهذا المعنى يحمل كل عنصر في وحدة الاضداد كيفا مميزا ، وصراع أحد الضدين للمحافظة على سيادته هو الذي يحفظ الكيف القديم ، وصراع الاخر لقلب هذه السيادة هو الذي يولد الكيف الجديد الذي يحل محل الكيف القديم

فكل حياة — مثلا — هي وحدة بين أضداد — بين عمليات بناء وهدم المادة الحية ، وطالما حافظت عمليات البناء على وضعها في هذه الوحدة تبقى الحياة ، لكن حين يبدأ الضد في السيطرة يبدأ الموت

واذا درسنا تناقضات المجتمع الرأسمالي فسيكون من الواضح ان الحالة الرأسمالية للمجتمع تتوقف على سيادة الملكية الخاصة على الانتاج الاجتماعي وسيادة الطبقة الرأسمالية على الطبقة العاملة وصراع الطبقة العاملة ضد الطبقة الرأسمالية ، الصراع لتحرير الانتاج الاجتماعي من قيود الملكية الخاصة ، هو الذي يولد حالة اشتراكية جديدة للمجتمع حين يتم قلب الحالة القديمة

وقد اشرنا بالفعل الى ان لكل تناقض طبيعته المحددة ،

ومن هنا فان لكل صراع بين الاضداد طبيعته المحددة في كل حالة ، وفقا للتناقض الخاص الذي تنبعث منه؛ وينتج عن هذا ان لعمليات التغير الكيفي ، لعمليات احلال الكيف الجديد محل القديم طابعها المحدد الخاص وفقا للكيف الذي ندرسه وما هو صحيح **بشكل عام** هو مجرد ان التغير الكيفي يتولد كحل للتناقضات كنتاج لتغير كمي ، لكن هذه الحقيقة العامة لا تدلنا على كيفية حدوث اي تغير **خاص** ، ولن نستطيع ان نكشف ذلك الا اذا عرفنا كل حالة خاصة .

فحين ندرس حل مختلف اشكال التناقضات الاجتماعية التي تؤدي الى تغيرات كيفية فسنجد ان كلا منها يحل بطريقة مختلفة ، فالتناقض بين جماهير الشعب الواسعة وبين السادة الاقطاعيين مثلا قد حل في النضال من أجل الثورة الديمقراطية ، والتناقض بين الطبقة العاملة والطبقة الرأسمالية يحل في النضال من أجل الثورة الاشتراكية ، والتناقض بين المستعمرات والامبريالية يحل في نضال التحرر الوطني ، والتناقض بين الطبقة العاملة والفلاحين في المجتمع الاشتراكي يحل عن طريق تجميع الزراعة ومكننتها

وأيا ما كان المنهج الذي تحل به التناقضات المختلفة فسنصل الى نقطة يكون فيها الجانب الكمي لصراع الاضداد داخل التناقض قد أصبح كافيا لبزوغ كيف جديد ، وهذه هي النقطة **التي يبدأ** فيها التغير الكيفي ويتوقف **استمراره** كلية على الطبيعة الخاصة للتناقض الذي هو نتاج له وعلى الطريقة الخاصة التي يستمر بها صراع الاضداد

والتغير الكيفي فجائي دائما ، ولا يمكن الا ان يكون فجائيا، بمعنى أنه عند نقطة معينة من التغير الكمي ينشأ كيف جديد لم يكن قائما من قبل ، وبعبارة اخرى عند هذه النقطة تبدأ اشياء جديدة في الحدوث ، وتعمل أسباب جديدة ، وتنتج اثار جديدة وتعمل قوانين جديدة للحركة

وهذا ما نسميه « الوثبة » الكيفية ، بدء ظهور الجديد الذي لم يكن هناك من قبل

وهكذا تسبق التغير الكيفي عملية من التحضير لنشوء الكيف الجديد ، وتعمل التناقضات من خلال هذه العملية — اذا أمكن القول — بطريقة غير مرئية — دون مظهر لتغير كيفي ، وعند نهاية هذه المرحلة تبدأ مرحلة نشوء كيف جديد بشكل فجائي ، ولا يمكن الا ان تنشأ كذلك

فمثلا حين يسخن الماء تحدث حركة تتحول فجأة الى عملية غليان ، وحين ينمو الطفل داخل الرحم تحدث حركة تتحول فجأة الى عملية ولادة في المجتمع تحدث حركة بين الطبقات، وتزداد النزاعات حدة ، وتنضج الاراء ، وفجأة يبدأ تغير ثوري حاسم

وبعد ذلك تتوقف كيفية سير التغير الكيفي وسرعة وبطء اكماله ، وطريقة هذا الاستكمال عموما ، تتوقف كلية على ظروف كل حالة خاصة ، فحالما ينشأ كيف جديد ، حالما يثب الى الوجود — تبدأ عملية ذات طابع كمي جديد يحل فيها الكيف الجديد محل القديم بالتدريج

وهكذا فبينما يبدأ التغير الكيفي فجأة فانه يستمر تدريجيا ، ويتوقف مدى سرعة وبطء حلول الجديد محل القديم على طبيعة العملية ، والظروف التي تحدث في ظلها

فالتغيرات الفيزيائية في الحالة مثلا كما يحدث عند غليان الماء تكون فجائية ، اذ نصل فجأة الى نقطة يبدأ فيها في التشكل شيء جديد هو البخار ، لكن تحول الماء الى بخار عملية تدريجية ، ونفس الوضع في التغيرات الكيمائية ، وهو ايضا نفس الوضع في التغيرات الكيفية في المجتمع ، فسنصل الى نقطة في حل التناقضات الاجتماعية يبدأ فيها التغير الكيفي — التغير من سلطة طبقة الى سلطة طبقة اخرى ، من نظام للعلاقات الانتاجية الى نظام اخر ، وبعد ذلك يأخذ اكمال هذا

التغير زمنا يطول أو يقصر

فلناخذ مثلا الجانب السياسي للثورات الاجتماعيـــة ، اي الاستيلاء على سلطة الدولة لقد حدث هذا في الثـــــورة الاشتراكية الروسية بضربة واحدة ـــ اي بسرعـــة نسبيا ـــ ففي بضعة ايام انتقلت كل مراكز السلطة الحاسمة الى ايـدي الطبقة العاملة، اما في الجولة الثانية من الثورات الاشتراكية ـــ اي في الديموقراطيات الشعبية الحالية ـــ فقد حدثت خلال فترة اطول عن طريق سلسلة من الخطوات انتزعت فيها مراكز السلطة واحدا بعد الاخر ، واذا استرجعنا الثورات التـــي كسبت بها البورجوازية قيما مضى السلطة من الاقطاعييـن لوجدنا انها حدثت خلال فترة اطول ـــ وانها كانت تمتد عـــادة لسنوات طويلة

واذا درسنا التغيرات الاقتصادية لوجدناها اميل الى البطء نسبيا، وانها تحدث خلال سلسلة من الخطوات ، فمثلا عندما نشأت العلاقات الرأسمالية في المجتمع الاقطاعي اخذت توسع مجالها خطوة بعد الاخرى خلال فترة طويلة ، كذلك فان احلال الاشتراكية محل الرأسمالية ـــ حالما يبدأ ـــ هو عملية تدريجية وان كانت تحدث بسرعة تزيد كثيرا عن احلال الرأسماليـــة محل الاقطاعية ـــ وهي تحدث بشكل اسرع لسبب محدد هـــو ان الأشتراكية لا تستطيع ان تبدأ في ازاحة الراسمالية الا بعد ان تستولي الطبقة العاملة على السلطة، وعندئذ تعمل سلطة الدولة في توجيه التغير الاجتماعي والاسراع به ، اما التغيـــر من الاقطاعية الى الرأسمالية فيبدأ عموما قبل ان تنتقل سلطة الدولة الى ايدى الطبقة الراسمالية بفترة طويلة وخلال هـــذه المدة تعمل الدولة على الابطاء بالتغير لا الاسراع به

وتوضح هذه الامثلة ان ثمة جانبا كميا للتغير الكيفي ، هو القوة والسرعة التي يكمل بها ذاته ، وهو بالطبع يمكـــن الا يكتمل على الاطلاق في ظل ظروف معينة غير ملائمة ، ففـــي

بعض الحالات قد يكون ممكنا ان يبدأ التغير ثم يعاد الى الخلف ويختفي

ويتضمن المفهوم المادي الجدلي عن التناقض كلا من فجائية وتدريجية التغير الكيفي ، وليس الفارق بين هذا المفهوم للتغير وبين غيره لدى كثير من الفلسفات الاخرى هو ان المادية الجدلية تقرر ان كل التغيرات الكيفية فجائية بينما يقول الاخرون انها تدريجية، وانما هو ان المادية الجدلية تفهم التغير على انه ناتج عن صراع الاضداد ، عن حل التناقضات ، بينما الاخرون يتغافلون ذلك او ينكرونه انهم يفترضون ان التغير يحدث بطريقة سهلة دون نزاعات او انه يحدث نتيجة للنزاعات الخارجية وحدها

التناقضات العدائية وغير العدائية

يتضمن حل التناقضات دائما صراع احد الجانبين مع الاخر وتغلبه عليه ، لكن هذه العملية قد تحدث بطرق مختلفة وفقا لطبيعة التناقض ، ويجب ان نميز في المجتمع على الخصوص بين التناقضات التي يتضمن حلها القهر العنيف او تدمير جانب لاخر ، وبين تلك التي لا يتطلب حلها مثل هذه الوسائل

فالتغير من الرأسمالية الى الاشتراكية مثلا يحدث عن طريق قهر الطبقة العاملة بالعنف للطبقة الرأسمالية ، لكن التغير التالي من الاشتراكية الى الشيوعية لا يتطلب القهر العنيف لاحد فالتغير الاول يحدثه الصراع بين قوى متعادية بينما لا نواجه مثل هذا العداء عند احداث التغير الاخير

وبشكل عام تكون التناقضات الاجتماعية عدائية حين تتضمن نزاعات في المصالح الاقتصادية،ففي مثل هذه الحالات تفرض احدى المجموعات مصالحها على الاخرى وتقهرها

بوسائل عنيفة ، ولكن حينما لا يتضمن الامر نزاعا في المصالح الاقتصادية فلن يكون هناك تناقض عدائي ولا حاجة للقهر العنيف من جانب جماعة لاخرى ؛ وحالما تنتهي العدواوات الطبقية في المجتمع الاشتراكي يمكن اقرار كل المسائل الاجتماعية بالنقاش والمجادلة، بالنقد والنقد الذاتي ، بالترغيب والاقناع والاتقان!.

وهكذا ليس العداء والتناقض نفس الشيء ؛وليس هو كذلك نفس صراع الاضداد داخل التناقض فصراع الاضداد سمة عامة ضرورية في كل تناقض ويمكن ان يتخذ شكلا عدائيا اولا يتخذه تبعا للطبيعة الخاصة للتناقض الخاص

وهكذا لاحظ لينين ان « العداء والتناقض مختلفان كلية ، فالعداء يختفي في ظل الاشتراكية لكن التناقض يظل باقيا ». (٣).

وكما قال ماوتسي تونج « فالتناقض العدائي ليس سوى احد اشكال الصراع داخل التناقض لكنه ليس شكله العام» (٤)

وللتمييز بين التناقضات العدائية وغير العدائية في تناقضات المجتمع اهمية عملية كبيرة ففي المجتمع عديد من التناقضات ومن المهم من الناحية العملية ان نميز ايها عدائي وايها غير عدائي ، كيما نجد المنهج السليم لمعالجتها ، فلو اخطأنا ونظرنا الى تناقض من احد النوعين على انه من النوع الاخر فسنقوم باعمال خاطئة لا يمكن ان تؤدي الى النتائج المرغوبة

فمثلا يعتقد الاشتراكيون الاصلاحيون انه ليس ثمة حاجة لان تستولي الطبقة العاملة على السلطة وتستخدمها لقهر الطبقة الرأسمالية بينما يدرك الماركسيون انه لا يمكن انهاء الرأسمالية وتحقق الاشتراكية بطريق اخر . ولكن بعد ان تبنى

---

(٣) لينين : ملاحظات نقدية عن كتاب بوخارين « اقتصاديات فترة الانتقال ».

(٤) ماوتسي تونج المصدر السابق .

الاشتراكية تختفي الطبقات والعداوات الطبقية، وهكذا تكون مناهج الصراع السليمة لحسم العدوات الطبقية العدائيةخاطئة في الصراع التالي للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ان التناقضات تبقى ؛ ولكن لانها لم تعد تتخذ شكل العداء بين المصالح فانها لم تعد تتطلب اجراءات عنيفة لفرض مصالح قسم من الناس على الاخر

فالتمييز بين ما هو عدائي وما هو غير عدائي في التناقضات داخل المجتمع هو تميز بين تلك التناقضاتالتي لا يمكن ان تحل الا باستخدام جانب القوة المادية ضد الجانب الاخر؛ وبين تلك التي يمكن ان تحل كلية كنتيجة للمناقشات بين اعضاء المجتمع وللقرارات التي يتفق عليها بعد هذه المناقشات والتناقضات من هذا النوع الاخير تناقضات خاصة لا يمكن ان تنشأ الا بين كائنات انسانية عاقلة ؛ ولا يمكنان تنشأ بينهم الا حين يتحدون متعاونين من اجل مصلحة مشتركة ؛ ولا تقسمهم المصالح العدائية . وفي مثل هذه التناقضات يظهر عنصر جديد ، هو الحل الرشيد الهادف الواعي للتناقضات في مواجهة الحل الاعمى للتناقضات في الطبيعة ــ انه عنصر الحرية الانسانية الجديد في مواجهة الضرورة الطبيعية

وحين توضع كل وسائل الانتاج كلية في ظل التوجيه الاجتماعي المخطط فان من الممكن ان نتوقع ازدياد سيطرة الناس على الطبيعة ازديادا هائلا ، وانتصار الانسان على الطبيعة وتحويله لها يعني بدوره تغييرات عميقة في اسلوب حياة الانسان وعلى سبيل المثال فان المقدرة على انتاج وفرة مطلقة من المنتجات بحد ادنى من انفاق العمل، والغاء التناقض بين العمل اليدوي والعمل الذهني ، يتضمن بوضوح تغييرات عميقة فيالتنظيم الاجتماعي ؛ والنظرة العامة ؛ والعادات ، واسلوب الحياة عموما ، وتأثير مثل هذه التغييرات لا يمكن الا ان يتضمن في كل مرحلة ــ التغلب على اشكال التنظيم

الاجتماعي ، والنظرات العامة والعادات التي تنتمي الى الماضي . وهكذا سيستمر التطور من خلال تكشف التناقضات والصراع بين الجديد والقديم ، فستنشأ احتياجات جديدة واتجاهات جديدة من الظروف القائمة في كل مرحلة وستتناقض هذه الاحتياجات والاتجاهات مع الاشكال القائمة للتنظيم الاجتماعي والحياة الإجتماعية ومن هنا تقود الى اندثارها واخلاء المكان لاشكال جديدة ، ولكن ليس ثمة سبب يدفعنا الى توقع حدوث هذا التطور ـ كما كان الوضع حتى الان ـ خلال النزاعات العنيفة والهبات الاجتماعية . بالعكس فحين يفهم الناس قوانين تنظيمهم الاجتماعي ، ويضعونها تحت سيطرتهم التعاونية فان من الممكن ان يقضوا على الظروف القديمة ويخلقوا ظروفا جديدة بطريقة مخططة متفق عليها ، دون نزاع عنيف او هبة ، ان التناقض وتغلب الجديد على القديم يظلان قائمين ؛لكن عنصر العداء والنزاع بين الناس في المجتمع يختفي ، ويترك المكان لاسلوب انساني حقا في تقرير الامور عن طريق التقدير العلمي للظروف والاحتياجات ومجرى العمل

الفصل العاشر

التطور والتغير

حركة التطور الى الامام

في كثير من العمليات ينتج عن حل التناقضات — حركة موجهة الى الامام تتحرك فيها العملية من مرحلة الى اخرى وكل مرحلة نعتبر تقدما لشيء جديد ، وليست ردة الى الخلف؛ الى مرحلة مرت بالفعل

بيد ان هناك عمليات لا تتميز بمثل هذه الحركة الى الامام. فمثلا حين يبرد الماء او يسخن فانه يمر بتغير كيفي وينتقل الى حالة جديدة (الثلج او البخار) لكن الحركة غير ذات اتجاه ولا يمكن ان يقال عنها انها تقدمية او وصفها بالردة ، فاذا كنا نصنع شايا مثلا فقد نستطيع ان نصف تحول الماء الى بخار بانه حركة الى الامام، واذا كنا نصنع مشروبات مثلجة فان الثلج يكون حركة الى الامام ، والواقع ان الثلج يمكن ان يتحول الى ماء ، والماء يمكن ان يتحول الى بخار وبالعكس وليس لهذه الحركة اتجاها ذاتيا ، بيد اننا اذا درسنا حركة مثل حركة المجتمع فسنجد لها اتجاها ذاتيا فالمجتمع يسير الى الامام من الشيوعية البدائية الى العبودية ، ومن العبودية الى الاقطاعية ، ومن الاقطاعية الى الراسمالية . ومن الراسمالية

الى الشيوعية ؛ وهذه حركة ذات اتجاه ؛ حركة « الـــــى الامام ».

وكان هيجل يعتقد ان العمليات الطبيعية كلها من النوع غير الموجه (مثل الثلج ــ الماء ــ البخار ــ الماء ــ الثلــج) وان الاتجاه لا يدخل العمليات الا حيثما يعمل فيهـــا « روح » او وعي »؛ فكتب يقول

« فالتغيرات التي تحدث في الطبيعة مهما كان اختلافها غير المحدود لا تعرض الا دائرة تتكرر على الدوام ؛ ففي الطبيعة لا جديد تحت الشمس » ولا ينشأ شيء جديد الا فـي تلك التغيرات التي تحدث في منطقة الروح » (١)

لكن هذا التمييز لا يتوقف في الواقع على اي اختلاف بيـن «الطبيعة» وبين « الروح » ؛ فقد يكون للحركة اتجاها دون ان يكون ثمة وعي يوجهها ؛ فالروح او الوعي ذاته هو نتـــــاج للطبيعة ؛ فلقد كان للتغيرات البيولوجية التي ادت الى ظهـــور الانسان اتجاها ؛ وكذلك التغيرات الجيولوجية ،وعمليات تطور النجوم وهكذا وللاتجاه في العمليات عموما تفسير « طبيعي » فاذا كان لبعض العمليات اتجاها ولم يكن هذا متوافرا لعمليات اخرى فان هذا يتوقف فقط على الطابع الخاص للعمليات ذاتها وللظروف التي تحدث في ظلها

وبشكل عام ، ولان التغير الكيفي في العملية يحـدث دائما نتيجة لتغير كمي ، يكون لهذا التغير الكيفي اتجاها حيـــث تنشأ التغيرات الكيفية من ظروف تعمل على الدوام داخـــل العملية ذاتها والا فلا يكون له اتجاه ، ويكون للحركة اتجـاه حين تدفعهـا الى الامام الاسباب الداخليـة مهمـــا كانت مشروطة بالعوامل الخارجية)؛ ويكون الاتجاه الذي تأخـــذه في هـــذه الحالة هو « اتجاهها الذاتي » لانـــه ينشأ بالدقة من اسباب داخلية

---

(١) هيجل : « فلسفة التاريخ » ــ المقدمة .

فما هو اذن اساس الاتجاه في العمليات ، اساس الاسباب الداخلية لحركة التطور الى الامام ؟ نستطيع ان نرى هـــذا الاساس في انه توجد داخل هذه العمليات تناقضات اساسية ذات فعل طويل الاجل وتحـــل باتخاذ سلسلـــة من الاشكال المحددة ، فهذا هـــو الذي يولد سلسلة من المراحل الموجهة، وعملية طويلة المدى من التطور في اتجاه محدد

وهكذا فاذا كان للتطور الاجتماعي مثلا اتجاها فان منشـــأ هذا هو ان الانسان يوجد في علاقة متناقضة على الدوام مـــع الطبيعة،ووجود هذا التناقض على الدوام يولد الاتجاه الدائم من جانب الانسان لتحسين قوى انتاجه ؛ واذ يعمل هذا الاتجـــاه تنشأ في مرحلة بعد الاخرى تناقضات بين قوى الانتاج الاجتماعية وبين علاقات الانتاج ، واتجاه تطور الانسان الاجتماعي هـــو اتجاه سيطرة الانسان على الطبيعة ، وتأخذ حركة المجتمـــع هذا الاتجاه بسبب الظروف الطبيعية للحياة الانسانية، والرغبة الدافعة في التغيير والتطور التي يمارسها الناس بسبب ضرورة اشباع حاجياتهم

وبالمثل اذا كانت اشياء مثل النجوم تمر خلال سلسلة مـــن المراحل التطورية فان سبب هذا هـــو ان ظـــروف وجودها المتناقضة تولد عمليات مستمرة مثل الاشعاع ، واستمرارهـــا ينتج سلسلة من المراحل الكيفية في تاريخها

وينبغي بالتأكيد الا نقول ـــ كما قال بعض الفلاسفة ـــ ان الكون اللامحدود يتطور في الزمن اللامحدود من مرحلة الـــى مرحلة في اتجاه محدد من قبل ،فليس ثمة شاهـــد على مثـــل هذا الزعم ـــ والواقع انه لا معنى له ؛ فنحن لا نستطيـــع ان نتحدث عن الاتجاه الذي يتخذه كل شيء وانما عن اتجاه تطور الاشياء الخاصة التي تهمنا ، ولا يرجع التطور الموجه للاشياء الى الله او الروح الذي يعمل فيها ، ولا هو مظهـــر لقانـــون كوني غامض، بل انه ينشأ ويفيض عـــن التناقضات الخاصة

للاشياء الخاصة فالاشياء الخاصة تتميز بتناقضات خاصة وكنيتجة لها تأخذ حركتها اتجاها خاصا

التناقض بين القديم والجديد ــ بين الماضي والمستقبل

حينما توجد حركة تطور الى الامام في عملية ما ، يحدث ــ مرحلة بعد مرحلة ــ انتقال من حالة كيفية قديمة إلى حالة كيفية جديدة وحلول كيف جديد محل القديم

وتظهر مرحلة التطور الجديدة الى الوجود من حل التناقض الكامن في المرحلة القديمة ، كما تحوى المرحلة الجديدة ذاتها تناقضا جديدا ،لانها تظهر الى الوجود محتوية لشيء من الماضي الذي انبعثت منه ومن المستقبل الذي تؤدي اليه ، وعلى هذا فان بها «جوانب ايجابية وجوانب سلبية ، ماضيا ومستقبلا، شيئا يموت وشيئا يتطور »، وعلى هذا الاساس ينبعث داخلها من جديد « الصراع بين القديم والجديد ، بين ما يموت وما يولد ، بين ما يختفي ومايتطور »

وعلينا لكي نفهم قوانين تطور اي شيء ان نفهم تناقضاته وكيف تحل

فعاده تحوي العملية عديدا من التناقضات لا تناقضا واحدا ،انها عقدة من التناقضات ، وهكذا فلكي نفهم مجرى عملية ما يجب ان نضع في اعتبارنا كل تناقضاتها وان نفهم العلاقة فيما بينها

ويعني هذا عموما ــ في المقام الاول ــ ان علينا ان ندرك ما هو التناقض **الاساسي** للعملية، في طابعها العام وفي الشكل المحدد الذي يتخذه في كل مرحلة ، والتناقض الاساسي هو ذلك التناقض الكامن فيجوهر العملية ذاتها والذي يحدد اتجاهها

فالتناقض الاساسي في المجتمع مثلا هو التناقض بين قوى

الانتاج وبين علاقات الانتاج ، ويتخذ هذا التناقض شكلا محددا في كل مرحلة من مراحل المجتمع ، فهو في المجتمع الراسمالي التناقض بين الانتاج الجتماعي وبين الملكية الخاصة ، فالتناقض التناقض بين الانتاج الاجتماعي وبين الملكية الخاصة،فالتناقض الاساسي هو الذي يحدد اتجاه التطور من الراسمالية الى الاجتماعي

واذا ما راينا التناقض الاساسي ، فسنجد ان العملية تتميز بعدد من التناقضات التابعة الكبيرة والصغيرة ، يحدد طبيعتها واثارها التناقض الاساسي ، ويشكل فعل وحل هذه التناقضات مجموع عملية حركة التناقض الاساسي نحو بزوغ مرحلة جديدة للعملية، كيف جديد .

فالتناقض الاساسي يعمل وادواته كل الصراع الناشيء عن التناقضات التابعة ، بيد انه في هذا الصراع يلعب تناقض معين الدور الرئيسي ، وبعبارة اخرى ، يوجد بشكل عام بين كل العناصر والاتجاهات والقوى التي تدخل في اشكال الصراع المختلفة في عقدة التناقضات واحد يلعب الدور الرئيسي في الوصول بالتناقض الاساسي الى حله بتحقيق مرحلة جديدة واحلال كيف جديد محل القديم

ففي داخل اي بلد راسمالي مثلا يوجد العديد من التناقضات فالى جوار التناقض بين الطبقة العاملة وبين الطبقة الراسمالية هناك تناقضات اخرى بين طبقات اخرى — البورجوازية الصغيرة في المدن، الفلاحين كبار ملاك الارض الخ — وذلك فضلا عن التناقضات داخل الطبقة الراسمالية ذاتها ،كما ان هناك تناقضات ذات طابع دولي ،مثل التناقض بين بلد راسمالي معين وغيره ، وبين الامبرياليين وشعوب المستعمرات ولكن داخل كل عقدة التناقضات هذه فان الصراع بين الطبقة العاملة وبين الطبقة الراسمالية — في هذا البلد المعين — هو الذي يلعب الدور الرئيسي في السير بالمجتمع الى الامام من

الرأسمالية الى الاشتراكية ، لان هذا هو التناقض الذي يمكن ان يؤدي الى تغير من سيطرة احد الجانبين الى سيطرة الجانب الاخر والذي يستطيع ان يولد تغيرا إساسيا في كيف الظاهرة كلها

وهكذا فالتناقض بين كبار الرأسماليين وبين البورجوازية الصغيرة مثلا يتخذ دائما شكل سيطرة كبار الرأسماليين الذين يزدادون قوة بالنسبة للبورجوازية الصغيرة التي تنحصر وتزداد ضعفا ، ومن هنا لا تستطيع البورجوازية الصغيرة ان تكون القوة الثورية الرئيسية في بلد رأسمالي ، ولا يمكن ان يكون تناقضها مع كبار الرأسماليين هو التناقض الرئيسي . ومن الناحية الاخرى تزداد الطبقة العاملة قوة مع تطور الرأسمالية ، وتكون هي الطبقة التي تستطيع — رغم خضوعها لسيطرة الرأسماليين — ان تطوح في النهاية بهذه السيطرة ، وهذا هو السبب في ان الطبقة العاملة هي القوة الثورية الرئيسية ، والسبب في ان التناقض بين هذه الطبقة وبين الرأسماليين هو التناقض الرئيسي

ومن هنا فان علينا لكي نفهم قوانين تطور عملية الا نفهم التناقض الاساسي للعملية في كل مرحلة فحسب ، بل ان نفهم ايضا ما هي القوة الرئيسية لحل التناقض الاساسي ، والانتقال بالعملية الى الامام نحو المرحلة التالية

وقد اشار ماوتسى تونج الى انه « عند دراسة اي عملية يجب ان نبذل اقصى طاقتنا لاكتشاف تناقضها الرئيسي »(٢)، وقد تكون هذه مهمة معقدة ، لان ما قد يكون تناقضا رئيسيا في ظروف معينة قد لايكون كذلك فيظروف اخرى ، ولكن ما لم ندرك التناقض الرئيسي « فلن نستطيع ان نجد عقدة المشكلة وبالتالي لننستطيع ان نجد منهج حل التناقضات » (٣)

٢ — ماوتسي تونج — المصدر السابق

٣— نفس المصدر

قال ماو « هذا هو المنهج الذي علمنا اياه ماركس حيـــن درس المجتمع الراسمالي » ، وبعض الجدال الذي ينور الان حول بعض « افكار الرئيس ماو » يدور حول مسألة اكتشـــاف التناقض الرئيسي في المرحلة الراهنة من التطور العالمي فقد اكد ماو انه التناقض بين الامبريالية وحركات التحرر الوطني

دور النفي في التطور

تحدث حركة التطور الى الامام ــ رغم تعقدها في كل حالة بعينها ــ خلال صراع الجديد والقديم وتغلب الجديد الصاعـــد على القديم الذي يموت

وهكذا ففي التطور الاجتماعي ، في الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، يتناقض مـــا هـــو جديد وصاعد في الحياة الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي ــ الانتاج الاجتماعي ــ ومع ما هـــو قديم ومنقول عـــن الماضـــي ــ الملكية الخاصة ، وتنشأ

قوة جديدة ــ الطبقة العاملة ــ يكون صراعها ضد الطبقـــة الرأسمالية هو صراع من اجل تحقيق المرحلة الجديدة ضـــــد حمـــاة القديم

ويتعارض هذا المفهوم الجدلي عن التطور مع المفهـــوم الليبرالي القديم المفضل لدى منظري البورجوازية ،فالليبراليون يعترفون بالتطور ، ويؤكدون ان التقدم قانون عام للطبيعـــة والمجتمع ، لكنهم يرونه كعملية سلسة ، فاذا كان عليهم فـــي بعض الاحيان ان يعترفوا بالصراع فانهم ينظرون اليه باعتباره انقطاعا تسـا ، اقرب لان يعيق التطور من ان يساعده فـــي السير الى الامام ، فبالنسبة لهم ليس ثمة حاجة لان يحل محل ما هو قائم ما يظهر الى الوجود ، ولا ان يتغلب الجديد علـــى القديم ، بل يجب المحافظة عليه حتى يتحسن بالتدريج ويصبح

وجودا اعلى

وسعى الاشتراكيون الديمقراطيون — في اخلاص لهذه الفلسفة التي استعاروها من الرأسماليين — للمحافظة على الرأسمالية بفكرة انها ستنمو الى الاشتراكية، وانتهوا في سعيهم للمحافظة على الرأسمالية لا الى النضال من اجل الاشتراكية بل الى النضال ضدها ان دعاة اللاصراع والتعاون الطبقي هؤلاء لا يستطيعون ان يتجنبوا الصراع وانما هم ببساطة يدخلون فيه مع الجانب الاخر

واذا قارنا المفهوم المادي الجدلي او الثوري للتطور مع هذا المفهوم الليبرالي الاصلاحي امكننا ان نقول ان الاول يعترف بدور النفي في التطور ويتضمنه ، بينما ان الثاني يعجز عن رؤيته ويرتعد منه ، ويعلمنا الجدل ان نفهم ان الجديد يجب ان يصارع القديم ويتغلب عليه ، وان القديم يجب ان يخلى مكانه للجديد — وبعبارة اخرى ان اجديد يجب ان ينفى القديم

ويفهم الليبرالي الذي يفكر بطريقة ميتافيزيقية النفي على انه مجرد قول «لا» ، فالنفي بالنسبة له هو مجرد نهاية شيء انه ليس تقدما بل تراجعا . . ليس كسبا بل خسارة

ويعلمنا الجدل من الناحية الاخرى الا نخشى النفي بل ان نفهم كيف يصبح شرطا للتقدم ، وسيلة للتقدم الايجابي

الطابع الايجابي للنفي

كتب انجلز النفي في الجدل لا يعني مجرد قول «لا» (٤)

فحين تنفي مرحلة جديدة المرحلة القديمة في عملية التطور فان المرحلة الجديدة — في المحل الاول — لم تكن تستطيع ان تولد الا منبعثة من القديمة وفي معارضتها ، فظروف وجود

---

(٤) انجلز . انتى دوهرنج . الجزء الاول الفصل ١٣ .

الجديد قد نشأت ونضجت داخل القديم ؛ فالنفي تقدم ايجابي لا ينتج الا بتطور المنفي والقديم لا يلغى ببساطة ، تاركا الاشياء وكأنه لم يوجد قط انه لا يلغى الا بعد ان يولد بذاته ظروف المرحلة الجديدة للتقدم

وفي المحل الثاني ، تشكل المرحلة القديمة ـ التي تنفى ـ مرحلة من مراحل التقدم في عملية التطور المتحركة الى الامام انها تنفى ، لكن التقدم الذي حدث خلالها لا ينفي ، بالعكس ان هذا التقدم يحمل الى المرحلة الجديدة ، التي تحوي في داخلها انجازات الماضي وتسير بها الى الامام

فمثلا : تحل الاشتراكية محل الرأسمالية ـ انها تنفيها ، لكن ظروف نشأة وانتصار الاشتراكية قد ولدتها الرأسمالية، وتظهر الاشتراكية الى الوجود كمرحلة من التطور تلي الرأسمالية ، وكل انجاز ، كل تقدم في قوى الانتاج ، وبالمثل كل انجاز فكري حدث في ظل الرأسمالية لايتحطم مع تحطم الرأسمالية وانما بالعكس تتم المحافظة عليه ودفعه الى الامام

ولا يفهم الليبراليون هذا المحتوى الايجابي للنفي ، فهو لديهم « مجرد قول لا » وبالاضافة الى هذا فهم يفكرون في النفي كشيء قادم من الخارج ،كشيء خارجي ، ان شيئا ما يتطور بشكل حسن جدا ، ثم يأتي شيء اخر من الخارج وينفيه ـ يدمره هذا هو مفهومهم ،أما ان يؤدي شيء ما بتطوره ذاته الى نفيه وبالتالي الى مرحلة اعلى من مراحل التطور ـ فانه شيء خارج دائرة فهمهم

وهكذا يتصور الليبراليون الثورة الاجتماعية لا ككارثة فحسب ـ كنهاية لتقدم منتظم ـ بل انهم يؤمنون ان مثل هذه الكارثة لا يمكن ان تنتج الا عن طريق قوى خارجية ، فاذا كانت ثمة ثورة تهدد بقلب النظام الرأسمالي ، فليس سببها تطور تناقضات هذا النظام ذاته بل انها ترجع الى « المثيرين »

وبالطبع هناك نفي يأخذ شكل ضربة من الخارج تحطم

شيئا ما ، فمثلا اذا كنت اسير في الطريق وصدمتني سيارة فانني اعاني نفيا من نوع سلبي خالص ، ومثل هذه الاحداث كثيرة في الطبيعة والمجتمع ، لكن ليست هذه هي الطريقة التي يجب ان نفهم بها النفي اذا اردنا ان نفهم دوره **الايجابي** في عملية التطور

ففي كل مرحلة في عملية التطور ينشأ صراع بين الجديد والقديم ، ويصعد الجديد ويزداد قوة داخل الظروف القديمة ، وحين يصل الى القوة الكافية فانه يتغلب على القديم ويدمره ؛ وهذا هو نفي المرحلة السابقة من التطور ، الحالة الكيفية القديمة ، وهو يعني ميلاد مرحلة جديدة اعلى من التطور ، لحالة كيفية جديدة

نفي النفي

ويصل هذا بنا الى سمة جدلية ابعد للتطور — نفي النفي فحينما ينفي النفي — وفقا للفكرة الليبرالية القائلة ان النفي « يعني مجرد قول لا » — يعود الوضع الاصلي مرة اخرى دون تغيير . فالنفي وفقا لهذه الفكرة هو مجرد شيء سالب ، شيء يطرح ، ومن هنا فحينما ينفي النفي — الشيء المطروح — فان هذا يعني مجرد اعادة ما سبق طرحه ، فاذا اخذ لص ساعتي ثم اخذتها منه فاننا نكون حيث بدأنا — وتكون الساعة لي مرة اخرى ؛ وبالمثل اذا قلت « سيكون هذا يوما طيبا » فقلت « لا ، بل سيكون يوما مطيرا » واجبتك كلا ، لن يكون يوما مطيرا » فانني اكون — بنفيي لنفيك — قد اعدت اقرار قضيتي الاصيلة .

ويتجسد هذا في مبدأ المنطق الشكلي « لا — يساوي » ففي النفي وفقا لهذا المبدأ عملية عقيمة ، انها تنتهي بك حيث بدأت .

ولندرس عملية واقعية من عمليات التطور ، والنفي الجدلي

الذي يحدث خلالها

يتطور المجتمع من المشاعية البدائية الى المجتمع العبودي، والمرحلة التالية هي الاقطاعية ، والمرحلة التالية هي الرأسمالية وكل مرحلة قد نشأت من سابقتها وتنفيها ، وهكذا فلدينا سلسلة من المراحل تظهر كل واحدة كنفي للاخرى ، وتشكل مرحلة اعلى من التطور ،ولكن ماذا سيتلو ذلك ؟ الشيوعية ، فهنا اذن عودة الى البداية ولكن على مستوى اعلى من التطور فمكان الشيوعية البدائية القائمة على اساس قوى انتاج بدائية تقوم الشيوعية القائمة على قوى انتاج متقدمة الى اقصى حد وتحوى داخلها امكانيات جديدة هائلة للتطور ، لقد اصبح المجتمع اللاطبقي البدائي القديم مجتمعا لا طبقيا جديدا ارقى لقد ارتفع الى قوة اعلى ، لقد عاد الى الظهور على مستوى اعلى لكن هذا لم يحدث الا لان المجتمع اللاطبقي القديم قد نفاه ظهور الطبقات وتطور المجتمع الطبقي ، ولان المجتمع الطبقي في النهاية وبعد ان مر خلال تطوره الكامل قد نفاه كذلك استيلاء الطبقة العاملة على السلطة ، منهية استغلال الانسان للانسان ، ومقيمة مجتمعا لا طبقيا جديدا على اساس كل انجازات الفترة السابقة للتطور باكملها

هذا هو نفي النفي ، لكنه لا يعود بنا الى نقطة البدء الاصلية انه يأخذنا امامًا الى نقطة بدء جديدة هي النقطة الاصلية بعد ان رفعت ــ خلال نفيها ونفي نفيها ــ الى مستوى اعلى

وهكذا نرى انه يمكن في مجرى التطور وكنتيجة لنفي مزدوج ان تكرر مرحلة جديدة مرحلة اقدم ، لكنها تكررها على مستوى اعلى من التطور

ولا تكمن اهمية نفي النفي في انه يعبر عن نموذج ضروري لكل تطور ، فكل تطور يحدث من خلال حل التناقضات ــ وهذا قانون ضروري شامل .

لكن التناقضات المحددة لا تحل بالضرورة بطريقة تجعل مرحلة من مراحل التطور تتكرر في مرحلة لاحقة — فاحيانا يحدث هذا واحيانا لا يحدث وتبعا للطبيعة المحددة لعمليات التطور .

بيد ان تكرار مرحلة سابقة هو **بالفعل** سمة بارزة لبعض عمليات التطور وفضلا عن هذا فان تحقيقه كثيرا ما يكون هدفا هاما من اهداف التطبيق وتكمن اهمية مفهوم نفي النفي فيما يقوله عن ظروف مثل هذا التكرار . فاذا كانت سمات مرحلة سابقة ستتكرر في مرحلة لاحقة فان هذا لا يحدث بمجرد عودة الى المرحلة السابقة — لان هذه المرحلة قد مضت ولا يمكن ان تعود ثانية وانما هو يحدث فحسب عن طريق اعادة خلقها في مرحلة لاحقة ، وفي هذه الحالة فانها ستتغير وتتعدل حتما وفقا لطبيعة المرحلة اللاحقة وهكذا فان سمات الماضي لا يمكن ان تعود الى الظهور في المستقبل الا متغيرة ومتحولة عن طريق عملية نفي النفي وليس بمجرد عودة الى الماضي

ولهذا المبدأ — كغيره من المبادىء الجدلية — سمة من الوضوح كثيرا ما يغفل عنها انه حقيقة واضحة — وانما يغفله كل اولئك الذين يعبرون عن شغف بالعودة الى الماضي، فمثل هذا الشغف لا يمكن ان يكون الا عبثا ومن المهم للغاية في التطبيق ان ندرك ان ما هو **ماض** لا يمكن ان يعود حين يعمل التطور الى الامام . غير ان بعض سمات الماضي يمكن ان تعاد وانما بالسير الى الامام بعملية التطور الى مرحلة جديدة ؛ تعود فيها هذه السمات الى الظهور باشكال جديدة — على مستوى ارقى » ، كنفي للنفي ؛ وقد ازدادت ثراء وتحولت كنتيجة للنفي الاول

ولقد رأينا بالفعل كيف يحدث نفي النفي في التاريخ في التطور من المشاعة البدائية الى الشيوعية .ولا يصبح ظهور الشيوعية ثانية ممكنا الا بعد المرور بكل تطور المجتمع

الطبقي ـــ النفي الاول ، وهي تجسد كل ما انجز خلال هـــذا التطور

وفي تاريخ الفكر نفت المثالية الفلسفية « المادية الطبيعية البدائية ، للفلسفات الاولى ، ولا تنشأ المادية الحديثة الا كنفي لهذا النفي

يقول انجلـــــز

وهذه المادية الحديثة ، نفي النفي ،ليست مجرد اعـــــادة للقديم ، بل انها تضيف الاسس الدائمة لهذه المادية القديمة كل المحتوى الفكري لالفي سنة من تطور الفلسفة والعلم الطبيعي .(٥)

ويمكننا ان نرى الاهمية العملية لنفي النفي بوضوح اكبـــر اذا اخذنا مثال تطور الملكية الفردية حيث يحدث فيها ايضا

فقـــد اوضح ماركس في المجلد الاول مـــــن رأس المال ان الملكية الفردية الخاصة القائمة على عمل المالك » فيما قبل الرأسمـالية تنفيها تحطمها الملكية الرأسمالية الخاصة. فلا تنشأ الملكية الخاصة لدى الرأسمالي الا على دمار ونـــــزع ملكية المنتجين الافراد فيما قبل الرأسمالية فقد كان المنتـــج الفردي يملك ادوات انتاجه ونتاجه وانتزعهما منه الرأسماليون ولكن حين تنفي الملكية الخاصة الرأسمالية ذاتها حيـــــن « تنزع ملكية من سبق ان نزعوا الملكية » فان الملكية الفرديـــة للمنتجين تعود مرة اخرى ولكن فيشكل جديد على مستوى اعلى

« فهذا لا يعيد من جديد الملكية الخاصة للمنتج ، وانمـــــا يعطيه ملكية فردية تقوم علـــى اساس مكتسبـــات العصر الرأسمالي ، اي على التعاون والملكية والحيازة المشتركـــة

---

(٥) فريدريك انجلز « انتى دوهرنج » .

للارض ووسائل الانتاج » (٦).

وهنا يتمتع المنتج — كمساهم في الانتاج المشترك — بنصيب من الناتج الاجتماعي كملكية فردية له — « حسب عمله » في المرحلة الاولى من المجتمع الشيوعي و «حسب حاجته» في المجتمع الشيوعي كامل التطور

وحين نشأت الرأسمالية كان الطريق الوحيد الى الامام هو من خلال نفي النفي وقد وضع بعض رجال حركة الميثاق البريطانيين في سياستهم الزراعية مطالب تستهدف تقييد العملية الرأسمالية الجديدة واعادة الملكية الفردية الخاصة القديمة للمنتج ، وكان هذا عبثا فقد كان الطريق الوحيد الى الامام بالنسبة للمنتجين هو الصراع ضد الرأسمالية ومن اجل الاشتراكية — لا اعادة الملكية الفردية القديمة التي دمرتها الرأسمالية بل تحطيم الرأسمالية وخلق ملكية فردية جديدة على اساس اشتراكي

وبالمثل كان الناروديتك الروس — الذين ناضل ضدهم لينين في تسعينات القرن الماضي — يريدون ان يوقفوا بشكل ما عملية التطور الرأسمالي ويعيدوا الكومونات الفلاحية القديمة وقد كان نضال لينين ضدهم قائما على ايضاح استحالة هذا الامر

وهكذا فان مبدأ نفي النفي هو تعبير عن حقيقة بسيطة هي ان المرء لا يستطيع ان يعيد عقارب الساعة الى الخلف ويعود بالماضي من جديد وانما كل ما يستطيعه هو ان يتحرك الى الامام نحو المستقبل عن طريق حل كل التناقضات التي تحويها المرحلة المعينة من مراحل التطور وعن طريق عمليات النفي المتتالية عليها

---

(٦) كارل ماركس — رأس المال — المجلد الاول الفصل ٣٢ .

الفصل الحادي عشر

نظرة علمية الى العالم

العلم والمادية

المادية الجدلية ــ الفلسفة التي تتبناها الاحزاب الماركسية ــ هي نظرة علمية حقا ، لانها تقوم على أساس دراسة الاشياء كما هي عليه دون افتراضات تعسفية مسبقة (خيالية مثالية) ، ولانها تصر على أن تقيم مفاهيمها على أساس البحث والخبرة الواقعيين ، وعلى ان تختبرها على الدوام وتعيد اختبارها على ضوء الممارسة ومزيد من الخبرة

وتعنى « المادية الجدلية » في الواقع فهم الاشياء كما هي عليه « المادية » في علاقتها المتبادلة وحركتها « الجدلية » ، . ولا يمكن ان يقال نفس الشيء عن الفلسفات الاخرى ، فكلها تقدم افتراضات تعسفية من نوع أو اخر ، وتحاول ان تبني « مذهبا» على أساس هذه الافتراضات ، لكن هذه الافتراضات ليست تعسفية الا من حيث المظهر ، فهي في الواقع تعبير عن مختلف تحيزات واوهام طبقات محددة

والمادية والجدلية ليست بأي حال فلسفة « فوق العلوم »

لقد وضع الاخرون الفلسفة « فوق العلوم » ، بمعنى انهم يستطيعون أن يكتشفوا ما هو العالم بمجرد التفكير فيه ،

دون اعتماد على معلومات العلوم ، وعلى الممارسة والخبرة ثم حاولوا من هذا الموقف المتعالي أن يملوا نظرتهم على العلماء ؛ أن يكشفوا لهم موطن خطئهم ، وما تعنيه اكتشافاتهم « حقيقة » وما الى ذلك

لكن الماركسية وضعت حدا للفلسفة القديمة التي كانت تدعى الوقوف فوق العلم ، وتفسير « العالم ككل »

يقول انجلز

« المادية الحديثة ... لم تعد في حاجة الى فلسفة فوق العلوم ؛ فحالما يطلب من كل علم مفرد أن يصل الى الوضوع حول مركزه في كلية الاشياء وفي معرفتنا عن الاشياء يصبح العلم الخاص الذي يعالج هذه الكلية » (١)

العلوم؛فحالما يطلب من كل علممفرد ان يصل الى الوضوح فلسفة بل مفهوم بسيط عن العالم عليه أن يثبت صلاحيته وأن يطبق لا في علم العلوم الذي يقف بعيدا ، بل داخل العلوم نفسها

فالفلسفة اذن قد الغيت وبقيت في نفس الوقت ، الغيت من حيث شكلها ؛ وبقيت من حيث محتواها الحقيقي »(٢)

ونحن لا نستمد صورتنا عن العالم المحيط بنا ، عن الطبيعة، عن المواضيع والعمليات الطبيعية ، عن علاقاتها المتبادلة وقوانين حركتها لا نستمد هذه الصورة من تأمل فلسفي بل من أبحاث العلوم الطبيعية

وليست الصورة العلمية عن العالم وتطوره كاملة ، ولن تكون كاملة أبدا ، لكنها تقدمت بدرجة تكفي لكي ندرك أن التأمل الفلسفي مرفوض ، ينبغي ان نرفض ملء ثغرات المعرفة العلمية بالتأمل

---

(١) انجلز : انتى ـ دوهرنج ـ المقدمة ١

(٢) انجلز : المصدر السابق الجزء الاول الفصل ١٣

ان صورة العالم النامية التي يكشف عنها العلم الطبيعي صورة مادية — على الرغم من كل الجهود التي يبذلها الفلاسفة البرجوازيون ليثبتوا العكس ، فاذ يتقدم العلم خطوة خطوة فانه يرينا كيف يمكن ان نفسر ونفهم الاشياء والعمليات والتغيرات شديدة التنوع التي نجدها في العالم الواقعي بأسباب مادية دون أن ندخل الله او الروح او اي عنصر فوق الطبيعة

ان كل تقدم للعلم هو تقدم للمادية ضد المثالية ؛ هو انتصار للمادية — رغم أن المثالية حينما تزاح من مركز تحتل دائما مركزا اخر ، وتظهر في اشكال جديدة ، بحيث لم تكن العلوم ابدا فيما مضى مادية متماسكة .

فكل تقدم في العلم يعني توضيح نظام وتطور العالم المادي « من العالم المادي ذاته »

العلم والاشتراكية

يبدو الطابع العلمي للماركسية بشكل خاص في انها جعلت من الاشتراكية علما

فنحن لا نقيم اشتراكيتنا — كما فعل الطوبويون — على مفهوم الطبيعة الانسانية المجردة . لقد وضع الطوبويون مخططات لمجتمع مثالي ، لكنهم لم يستطيعوا أن يوضحوا كيف نحقق الاشتراكية في التطبيق أما الماركسية فجعلت الاشتراكية علما اقامته على تحليل لحركة التاريخ الفعلية ، وعلى القانون الاقتصادي لحركة المجتمع الرأسمالي بشكل خاص ، وبذلك اوضحت كيف تنبعث الاشتراكية بأعتبارها المرحلة الضرورية التالية في تطور المجتمع ، وكيف انها لا يمكن تحقيقها الا بنضال الطبقة العاملة ، وعن طريق هزيمة الطبقة الرأسمالية واقامة ديكتاتورية البروليتاريا (وهكذا تعالج الماركسية الانسان ذاته ، والمجتمع والتاريخ، بطريقة علمية) .

يقول انجلز

« ومنذ أن أصبحت الاشتراكية علما فانها تطالب بأن تتبع كعلم ، اي بأن تدرس ، وستكون المهمة هي ان تنشر بين جماهير العمال بحماس متزايد الفهم متزايد الوضوح الذي نحصل عليه بهذه الطريقة ، وأن نربط معا بمزيد من القوة تنظيم كل من الحزب والنقابات » (٣)

وتوضح الدراسة العلمية للمجتمع ان التاريخ الانساني يتطور من مرحلة الى مرحلة وفقا لقوانين محددة والناس انفسهم هم القوة النشطة في هذا التطور . وهكذا نستطيع بفهم قوانين تطور المجتمع أن نوجه نضالنا ونخلق مستقبلنا الاشتراكي

وهكذا فالاشتراكية العلمية هي أعظم وأهم العلوم جميعا

ان ممارسي العلوم الطبيعية يشعرون بالقلق لانهم يحسون أن الحكومات لا تعرف كيف تستخدم اكتشافاتهم على أفضل وجه . ولديهم من الاسباب حقا ما يدفعهم الى هذا القلق ، فالعلم يكتشف أسرار الطاقة النووية مثلا ، لكن اكتشافاته تستخدم لصنع أسلحة الدمار . بل لقد بدأ الكثيرون يعتقدون انه لو لم يكن لدينا علم لكان ذلك افضل ما دامت اكتشافاته تفتح مثل هذه الامكانيات الرهيبة للكارثة

فكيف يمكن أن نضمن استخدام اكتشافات العلم على خير وجه لصالح البشرية ؟ ان الاشتراكية العلمية وحدها هي التي تجيب على هذه المشكلة . انها تعلمنا ما هي القوى التي تصنع التاريخ وبذلك تبين لنا كيف نستطيع ان نصنع تاريخيا اليوم ، ونغير المجتمع ، ونحدد مستقبلنا . ومن هنا فانها تعلمنا كيف تطور العلوم في خدمة البشرية ، وكيف تسير بها الى الامام في الازمة المعاصرة ، فالفيزياء

---

(٣) فريدريك انجلز ــ ملاحظة تمهيدية لكتاب « حرب الفلاحين في المانيا » .

يمكن أن تعلمنا كيف نطلق الطاقة النووية لكنها لا تستطيع أن تعلمنا كيف نسيطر على الاستخدام الاجتماعي لهذه الطاقة. ونحن في حاجة من أجل هذا — لا لعلم الذرة — وانما لعلم المجتمع

ملاحظات ختامية

درسنا الان بايجاز السمات الرئيسية للمفهوم الماركسي المادي عن العالم، وللمنهج الماركسي الجدلي، فأي نتائج يمكن ان نستلخصها في هذه المرحلة ؟

١ — أن نظرة المادية الجدلية الى العالم نظرة متسقة عقلية ، تستمد قوتها من أنها تنشأ مباشرة من محاولة حل المشكلات البارزة في عصرنا

فعصر الرأسمالية هو عصر من التطور العاصف في المجتمع ، وهو يتميز بتقدم ثوري لقوى الانتاج وللاكتشاف العلمي وما ينشأ عن ذلك من اضطراب لا يتوقف في كل الظروف الاجتماعية ، وهذا يضع أحد المهام النظرية في المقام الاول ، وهي مهمة الوصول الى مفهوم سليم لقوانين التغير والتطور في الطبيعة والمجتمع . وهذه المهمة النظرية هي التي تواجهها المادية الجدلية

٢ — وليست هذه هي مهمة وضع مذهب فلسفي بالمعنى القديم ، فما نحن في حاجة اليه ليس مذهبا من الافكار المنسوجة في أذهان الفلاسفة نستطيع أن نعجب به ونتأمله كمذهب « للحقيقة المطلقة » .

فالمجتمع الرأسمالي مجتمع تمزقه التناقضات ، وكلما زاد تطوره زاد تهديد نتائج هذه التناقضات للشعب العامل ، فقوى الانتاج لا تستخدم لصالح المجتمع ككل بل لصالح أقلية مستغلة ، وبدلا من أن يؤدي نمو قوى الانتاج الى الوفرة الشاملة فانه يؤدي الى الازمات الاقتصادية

الدورية والبطالة والبؤس والحروب الغادرة والمدمرة

وهكذا تصبح المشكلة الفلسفية للوصول الى مفهوم حقيقي لقوانين التغير والتطور في الطبيعة والمجتمع مشكلة سياسية عملية بالنسبة للشعب العامل هي مشكلة اكتشاف كيفية تغيير المجتمع ، بحيث يمكن استخدام قوى الانتاج الضخمة لمصلحة البشرية ، فللمرة الاولى في التاريخ وجدت امكانية الحياة المليئة الغنية لكل الناس ومهمتنا هي تحويل هذه الامكانية الى واقع

وتكرس نظرية المادية الجدلية نفسها لحل هذه المهمة العملية

٣ ــ واذ تتجه المادية الجدلية لهذه المهمة فانها لا يمكن الا أن تكون فلسفته متحزبة ، فلسفة حزب هو حزب الطبقة العاملة الذي يستهدف قيادة الملايين من ابناء الشعب العامل نحو الثورة الاشتراكية وبناء المجتمع الشيوعي

٤ ــ ولا يمكن للمادية الجدلية الا ان تقف في تناقض حاد مع مختلف المدارس المعاصرة للفلسفة البورجوازية

فما الذي تقدمه مختلف المدارس الفلسفية هذه ؟ حشدا من المذاهب والمناقشات ــ ليس فيها اذا حللناها واحدا أصيلا او متماسكا ، لكنها لا تقدم حلا للمشكلات التي تلح على شعوب البلاد الرأسمالية والمستعمرات ، كيف ننهي الفقر ؟ كيف ننهي الحرب ؟ كيف نستخدم الانتاج لصالح الكل ؟ كيف ننهي قهر أمة لأمة ؟ كيف ننهي استغلال الانسان للانسان ؟ كيف نقيم الاخوة الانسانية ؟ تلك هي مشكلاتنا ، ويجب أن نحكم على الفلسفات وفقا لما اذا كانت توضح طريق حلها أم لا ووفقا لهذا المقياس يجب أن نحكم على المدارس الفلسفية الرأسمالية جميعا بأنها ــ « وزنت ووجدت ناقصة »

ان الفلسفات البورجوازية السائدة ــ رغم اختلافاتها ــ ترتد عن الافكار الايجابية التي الهمت الحركات التقدمية في الماضي ، صحيح انه ما زال بين صفوف الفلسفة البورجوازية

بعض الذين يواصلون محاولة المحافظة على بعض هـــذه الافكار الايجابية والسير بها الى الامام لانها افكار لا يمكن القضاء عليها بأي حال ، لكن الفلسفات السائدة تؤكد عجـــز الانسان ونواقصه ، انها تتحدث عن كون غامض ، وهم يلجأون اما الى الثقة في الله او الاستسلام العاجز للقدر او للصدفة العمياء فلماذا ؟ ذلك لان كل هذه الفلسفات تجد جذورهـــا في تقبل الرأسمالية ، ولا تستطيع ان تنظر الى ابعد مـــن الرأسمالية ، وهي تعكس من بدايتها الى نهايتها الازمة التى لا حل لها للعالم الرأسمالي

٥ ــ وتطلب المادية الجدلية ان يحكم عليها ، وسيحكم عليها بما اذا كانت اداة فعالة لتوضح طريق الخلاص من الازمـــات والحروب الرأسمالية ، لتوضح طريق الشعب العامل لكســـب السلطة السياسية وتدعيمها ، لتوضح طريق بناء المجتمـــع الاشتراكي الذي لم يعد فيه استغلال انسان لانسان ، والذي يكسب فيه الانسان سيطرة متزايدة علـــى الطبيعة

ان المادية الجدلية فلسفة ممارسة وهـــي تتحد اتحـــادا لا انفصام له بممارسة النضال من أجل الاشتراكية

انها الفلسفة التي تولدت عن الحركة العظيمة في عصرنـــا ــ حركة الشعب الذي يعمل ، الذي « يخلق الاشياء الطيبـــة في الحياة والذي يقدم الغذاء والكساء للعالم » ، لكي يرتفع في النهاية الى اسمى مكان ، انها تكرس نفسها كلية لخدمـــة هذه الحركة ، وهذا هو مصدر كل تعاليمها ، وخلال هـــذه الحركة تختبر استخلاصاتها وتمحص وتطور باستمرار ولا يمكن للحركة دون مثل هذه الفلسفة أن تحقق وعيا بذاتهـــا وبمهامها ، لا يمكن أن تحقق الوحدة ، لا يمكن ان تكســـب معاركها وما دامت اعظم المهام التي تواجهنا هي انهـــاء المجتمع الرأسمالي وبناء الاشتراكية فان المشكلة الرئيسيـــة التي تواجهها المادية الجدلية والتي تدور كل فلسفة الماديـــة

الجدلية حول حلها هي مشكلة فهم قوى تطور المجتمع ؛ المشكلة الرئيسية هي الوصول الى فهم للمجتمع ولنشاط الناس الاجتماعي ولتطور الوعي الانساني يوضح لنا كيف يمكن أن نحقق ونبني المجتمع الاشتراكي الجديد والوعي الاشتراكي الجديد ويطبق المفهوم المادي والمنهج الجدلي اللذين درسناهما في هذا المجلد على هذه المهمة في المفهوم المادي للتاريخ

قائمة المطالعة

تورد فيما يلي قائمة بمؤلفات ماركس وانجلز ولينين الرئيسية التي تعرض مبادىء الفلسفة المادية الجدلية . والكتب المشار امامها بهذه العلامة « x » هي الافضل بالنسبة للمبتدئين

ماركس وانجلز :

ـ الايديولوجية الالمانية ـ الجزء الاول

انجلز :

ـ الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية x
ـ لودفيج فيورباخ x
ـ انتي دوهرنج
ـ جدليات الطبيعة

لينين :

ـ تعاليم كارل ماركس x
ـ المادية والنقد التجريبي
ـ ملاحظات فلسفية

فهرس

صفحة

ـ ملحوظة للمؤلف عن الطبعة الرابعة ٥
ـ القسم الاول المادية ٧
ـ الفصل الاول فلسفة حزبية ٩
ـ الفصل الثاني المادية والمثالية ٢١
ـ الفصل الثالث المادية الميكانيكية ٣٧
ـ الفصل الرابع من المادية الميكانيكية الى المادية الجدلية ٥١
ـ القسم الثاني : الجدل ٦٣
ـ الفصل الخامس المفهوم الجدلي للتطور ٦٥
ـ الفصل السادس الجدل والميتافيزيقيا ٧٣
ـ الفصل السابع التغير والعلاقة المتبادلة ٩١
ـ الفصل الثامن قوانين التطور ١٠٥
ـ الفصل التاسع التناقض ١١٥
ـ الفصل العاشر التطور والنفي ١٢٧
ـ الفصل الحادي عشر نظرة علمية الى العالم ١٥١
ـ قائمة للمطالعة ١٥٩

هذا الكتاب هو المجلد الاول من ثلاثة مجلدات تخاطب القارىء العادي الذي يريد ان يعرف ماذا تعني المادية الجدلية في النظرية والتطبيق . ويعرض موريس كورنفورث في هذا الكتاب افكار الفلسفة الماركسية في عبارات يسيرة في متناول القارىء الذي لا يعرف الكثير عن المصطلحات الفلسفية بحيث يصبح حقا مدخلا مبسطا الى المادية الجدلية وسيتبع هذا المجلد الاول ، مجلد ثان عن « المادية التاريخية » ثم ثالث عن « نظرية المعرفة » ... ونأمل ان يكون الكتاب بمجلداته الثلاثة عونا للقارىء العربي على تفهم الاسس الفلسفية للنظرية الماركسية